

الفصل الثامن عشر

كاترين الكبرى

١٧٦٢ - ١٧٩٦

١ - الحاكمة المطلقة

انتصرت كاترين ، ولكنها كانت عرضة لكل المخاطر التي ينطوي عليها التغيير الفوضوي . فلكى تكافىء الجنود الذين حرسوها في سعيها الى السلطة أمرت حانات العاصمة بأن تقدم لهم الجعة والفودكا مجاناً ، وكانت النتيجة السكر انتشار بينهم انتشاراً كاد يقوض الأساس الحربى لقوتها . ففي منتصف ليلة ٢٩ - ٣٠ يونيو ، بينما كانت كاترين مستغرقة في أول نوم لها خلال ثمان وأربعين ساعة ، أيقظها ضابط وقال لها ، « إن رجالنا مخمورون جداً . وقد صرح فيهم فارس من الهوصار » إلى السلاح ! أن ثلاثين ألف بروسى قادمون لاختطاف أمنا (كاترين) ! فتقلدوا سلاحهم وهم قادمون ليظمنوا عليك » . وارتدت كاترين ثيابها ، وخرجت ، ونفت إشاعة قدوم البروسيين ، وأقنعت محاربيها بالمضى إلى فراشهم (١) .

ثم عرضها ابنها بولس للخطر . وقد بلغ السنة الثامنة من عمره وذلك أن بنين ، واشرافا كثيرين ، ومعظم الاكليروس ، أحسوا أن الشرعية تقتضى تتويج بولس إمبراطورا وتعيين كاترين وصية عليه ، ولكنها خشيت أن إجراء كهذا يلقي بالحكم في أيدي أولجركيه ارسقراطية ستسعى إلى خلعها أو التسلط عليها . وأعلنت رسميا أن بولس وارث للعرش ، ولكن مؤيديه واصلوا إثارة المشاعر ، وشب الابن على كراهية أمه لأنها سلبته حقه في التاج .

و حين ذاع نبأ الانقلاب في أرجاء روسيا تبين أن الرأي العام خارج العاصمة مناوئاً لكاترين . ذلك أن العاصمة عرفت عيوب بطرس مباشرة ، وأجمعت عموماً على عدم أهليته للحكم ، أما الشعب الروسي خارج سانت بطرسبرج فقد عرفه من التدابير السميحة التي أضفت على حكومته شيئاً من السمو . فجماهير موسكو ، البعيدة بعداً لا يسمح لها بالإحساس بفتنة كاترين ، ظلت معارضة في عناد لتوليها العرش . و حين أصطحبت كاترين بولس إلى موسكو (معقل التقاليد السنينة) صفق له أهلها بحرارة ، أما كاترين فكان لقاءهم لها فاتراً ، وندد كثير من أفواج الجيش في الأقاليم بجنود بطرسبرج غاصبين للسلطة القومية .

ولا علم لنا إن كان العطف الواسع على بطرس هو أحد العوامل في موته . ذلك أن القيصر المخلوع الذي تحطمت روحه راح يرسل الإلتماسات الدلييلة لزوجته ويقول لها « ارحميني وأعطيني سلوأي الوحيدة » - يعنى خليلته - ويرجوها أن تسمح له بالعودة إلى أقاربه في هولشتين . ولكنه بدلامن أن يتلقى هذا العزاء حبس في حجرة واحدة وفرضت عليه رقابة دائمة . وكان الكسي أورلوف ، رئيس حراسة ، يلعب الورق معه ويقرضه النقود . (٢) وفي ٦ يوليو ١٩٦٢ (حسب التقويم الجديد) ، ركب الكسي في عجلة إلى سانت بطرسبرج وأنبأ كاترين بأن بطرس تشاجر معه ومع غيره من الأتباع ومات في العراق الذي أفصت إليه المشاجرة . أما عن كيفية موته ، فالتاريخ لا يعرف غير الشائعات التي لم تثبت صحة واحدة منها : قيل إنه سمم أو خنق (٣) ، وإنه ضرب حتى مات (٤) ، وإنه مات إثر «إلتهاب الأمعاء والسكتة الدماغية» (٥) وينتهي آخر من أرخ لهذه الحقبة إلى أن «تفاصيل القتل لم يمط عنها قط اللثام تماماً ، والدور الذي لعبته فيه كاترين يظل غير مؤكد .» (٦) ومن غير المحتمل أن تكون كاترين قد أمرت بهذه الفعلة ، (٧) ولكنها لم تعاقب أحداً على ارتكابها ، وأخفتها عن الجماهير يوماً ، وقضت يومين في بكاء ظاهر ، ثم سلمت بالأمر الواقع . وقد أدانتها أوربا كلها تقريباً بالقتل ، أما فردريك الأكبر الذي خسر الكثير بخلع بطرس فقد برأ ساحتها ، « كانت الإمبراطورة جاهلة تماماً بهذه الجريمة ، وقد سمعت بها في يأس

لم تصطنعه ، لأنها توقعت بحق ذلك الحكم الذي يصدره عليها اليوم كل إنسان . « (٨) ووافق فولتير فردريك . أما بولس ابن كاترين ، فبعد أن قرأ الأوراق الخاصة التي خلفتها أمه عند وذاها ، نخلص إلى أن ألكسي قتل بطرس دون أي أمر أو طلب من كاترين . (٩)

ونخلقت الحادثة مشاكل لكاترين كما حلت مشاكل أخرى : فقد أوجت بسلسلة متعاقبة من المؤامرات نخلعها ، وتركتها في انزعاج متصل وخطر داهم وسط فوضى الحكم التي اكتنفها . كتبت عن هذه الحقبة فيما بعد فقالت : « ظل مجلس الشيوخ متبلدا يصم أذنيه عن شئون الدولة . وبلغت كراسي التشريع درجة من الفساد والتفسخ كادت تطمس معالمها . » (١٠) وكانت روسيا قد خرجت لتوها من حرب انتصرت فيها ولكنها كلفتها ثمنا فادحا ، فكانت الخزانة مدينة بثلاثة عشر مليون روبل ، وتشكو عجزا بلغ سبعة ملايين روبل في العام ، وأفتضح حال المالية من رفض كبار المصرفيين الهولنديين إقراض المال لروسيا . وتأخرت رواتب الجند شهورا كثيرة . وبلغ من سوء نظام الجيش أن كاترين خشيت أن يغزو تتر جنوبى روسيا إقليم أوكرانيا في أية لحظة . أما البلاط فقد اضطرب بالمؤامرات وأضدادها ، وبالخوف من فقدان مناصب الكسب أو السلطة ، أو الأمل في الظفر بها . وبعد سقوط بطرس بقليل ذهب السفير البروسى إلى أنه « من المؤكد أن حكم الإمبراطورة كاترين لن يكون أكثر من فاصل قصير في تاريخ العالم » (١١) . وكان هذا من قبيل التمنى ، لأن فردريك حزن على موت حليفه العابد لشخصه . وأخذت كاترين تلغى الأوامر التي أصدرها بطرس لمساعدة فردريك .

وحاولت الإمبراطورة أن تهدى معارضة رجال الدين بتأجيل تنفيذ المرسوم الذى أصدره بطرس بتأميم أراضى الكنيسة ، ثم ادفأت صدور أنصارها بما خلعتة عليهم من مكافآت سخية : فنفتحت جريجورى أورلوف بخمسين ألف روبل ، وفتح الطريق أمامه إلى الفراش الملكى . وأعيد بستوزيف من منفاه ، ورد إلى حياة مريحة ولكن دون أن يرد إلى منصبه .

ثم ترفقت بمن عارضوها من قبل . وقدم مونيخ فروض الطاعة والولاء
فصفت عنه فوراً وعينته حاكماً على استونيا ولفونيا ، وربما أعانتها هذه
التدابير على الثبات فوق عرشها المهتز ، ولكن أهم العوامل التي كانت
عوناً لها هي شجاعته وذكائها . ذلك أن سبعة عشر عاماً قضتها زوجة مهملة
لوريث العرش علمتها رغم حيويتها الشابة قدراً من الصبر والحكمة وضبط
النفس وخذاع الحكم . وقررت الآن ، في تحد لنصيحة بانين ، وارتياح
في ولاء مجلس الشيوخ ونزاهته وكفايته ، أن تركز الحكم كله في شخصها ،
وأن تواجه ملوك أوروبا المستبدين - باستبدادية تنافس جمع فردريك بين
العسكرية والفلسفة . ولم تتخذ لها زوجاً . وإذا كان النبلاء يسيطرون على
مجلس الشيوخ ، فقد كان الخيار بين أوتقراطية الملكة والاستبدادية الجزأة
للسادة الاقطاعيين ، وهو بالضبط الخيار الذي واجهه ريشليو في فرنسا
القرن السابع عشر .

وأحاطت كاترين نفسها بالكفاءة من الرجال ، واكتسبت ولاءهم ،
بل حبهم في كثير من الحالات ، ألزمتهم للعمل الشاق ، ولكنها أجزلت
لهم العطاء ، ولعلها غالت في مكافآتهم ، فقد أصبح بهاء بلاطها وبذخه
عبئاً كبيراً على مواردها . وكان بلاطاً غير متجانس ، مؤصلاً في البربرية
ومصقولاً بالثقافة الفرنسية ، ومحكوماً بامرأة ألمانية تفوق مساعدتها تعليماً
وذكاءً . وقد أثمرت مكافآتها السخية للخدمات الاستثنائية المنافسة دون
أن تكبح جماح الفساد . فكان الكثيرون من بطانتها يأخذون الرشا من
الحكومات الأجنبية ، واتخذ بعضهم موقف الحياد بقبول الرشا من طرفين
متعارضين . وفي ١٧٦٢ أذاعت كاترين على الأمة إقراراً غير عادي ،
فقالت :

« أننا نعدده واجباً أساسياً وضرورياً أن نعلن للشعب ، بحسرة صادقة ،
أننا سمعنا منذ زمن مديد ، وأنا الآن نرى في أفعال ظاهرة لاعميان ، إلى
أى درجة استشرى الفساد في امبراطوريتنا ، بحيث لا يكاد يوجد منصب
في الحكومة لا تعدو فيه على العدالة غدوى هذا الوباء . فإذا طلب

إنسان وظيفة كان عليه أن يدفع ثمنها ، وإذا شاء إنسان أن يدفع عن نفسه شر الافتراء ، فبالمال ، وإذا أراد أن يتهم جاره زورا وبهتاناً في استطاعته بالهدايا أن يضمّن نجاح خططه الشريرة » (١٢) .

وكان بعض المؤامرات التي تكاثرت من حولها يستهدف إحلال إيفان السادس محلها . وكان قد قضى الآن رهين السجن إحدى وعشرين سنة بعد أن خلعه انقلاب ديسمبر ١٧٤١ . في سبتمبر ١٧٦٢ أفصح فولتير عن خوفة من أن « إيفان قد يطيح بمن أحسنت إلينا » (١٣) ، وكتب يقول : « أخشى أن تقتل إمبراطورتنا العزيزة . » (١٤) فزارت كاترين إيفان ، ووجدته « إنساناً مهملاً مهجوراً تردى في العتمة نتيجة السجن سنين طويلة » (١٥) ثم تركت لحراسه أوامر بأنه لو بذلت أية محاولة لم تصرح بها هي نفسها للإفراج عنه ، فعليهم أن يقتلوا إيفان خيراً من أن يسلموه . وفي منتصف ليلة ٥-٦ يوليو ١٧٦٤ ظهر ضابط في الجيش يدعى فاسيلي ميروفتش على باب السجن يحمل ورقة فحواها أنها أمر من مجلس الشيوخ بتسليم إيفان له . ثم مضى يعينه بعض من الجنود وطرق باب الزنزانة التي كان حارسان ينامان فيها مع إيفان ، وطالب بالدخول . فلما رفض طلبه أمر بإحضار مدفع لتحتيم الباب . فلما سمع الحارسان الأمر قتلا إيفان . وقبض على ميروفتش وأعلنت وثيقة عثر عليها في جيبه أن كاترين خلعت ، وإن إيفان السادس أصبح منذ الآن قيصراً لروسيا . ورفض عند محاكمته أن يفضى بأسماء شركائه . وكان جزاؤه الإعدام . واتهم الرأي العام عموماً كاترين بقتل إيفان . (١٦)

واتصلت المؤامرات . ففي ١٧٦٨ أكد ضابط يدعى تشوجلوكوف أنه موكل من الله بالانتقام لمقتل بطرس الثالث ، فتسلح بخنجر طويل ، ووجد طريقه إلى القصر الملكي ، واختبأ عند منعطف دهليز ألفت كاترين أن تمر فيه . وسمع جريجوري أورلوف بنجر المؤامرة ، فقبض على تشوجلوكوف ، الذي اعترف مفاخرأ بأنه ينوي قتل الإمبراطورة ، وكان جزاؤه ، النفي إلى سيبيريا .

٢ - العاشقة

أحاط بكاترين نبلاء لا تستطيع أن تثق بهم ، ولاحقها الدسائس التي أحدثت الاضطراب في الادارة ، لذلك اخترعت ضرباً جديداً من الحكم جعلت فيه عشاقها المتعاقبين كبار إدارى الحكومة . فكان كل عشيق خلال صعود نجمه كبير وزرائها ، وأضافت شخصها إلى مكافأة المنصب ، ولكنها اقتضت كفاءة الخدمة نظير ذلك . كتب ماسون (وهو واحد من أعداء كاترين الفرنسيين الكثيرين) يقول « لم تكن وظيفة واحدة من وظائف الحكومة كلها لا تؤدي فيها الواجبات بمنتهى الدقيق . . وربما لم يكن هناك أى منصب لم تبد فيه الامبراطورة اختياراً وتمييزاً أكثر من غيره . وفي اعتقادي أنه لم تقع حالة تبين فيها أن المنصب شغاه شخص غير كفء له . » (١٧) ومن الخطأ أن نكون فكرتنا عن كاترين أنها امرأة فاجرة منغمسة في اللذات ، فقد راعت جميع مظاهر اللياقة ، ولم تسمح لنفسها قط بالدخول في أحاديث نابية ، ولا سمحت بها في حضرته . (١٨) وقد بذلت لمعظم عشاقها الود الوفي - ولبعضهم الود الرقيق ، ورسائلها إلى بوتمكن تم على إخلاص يكاد يكون صبيانياً ، وقد أصابها موت لانسكوى بحزن مدمر .

وكانت تستعين بالفن والعلم معاً في مهمة اختيار صاحب الخطوة الجديد . فهي تشد رجالاً يجمعون بين القدرة السياسية والجسدية ، كانت تدعو المرشح لتناول العشاء ، وتختبر عاداته وعقله ، فإذا جاز هذا الإمتحان الدقيق فحصه بأمرها طبيب القصر ، فإذا خرج من هذا الاختبار سليماً عينته ياورا لها ، وأعطته راتباً مغرياً ، وسمحت له بمعاشرتها . وإذا كانت مجردة تماماً من الإيمان الديني ، فانها لم تسمح لأى من الأخلاقيات المسيحية بأن تتدخل في طريقها الفذة في اختيار الوزراء . وقد وضحت الأمر لنقولاً سالتيكوف فقالت : «إنى أخدم الامبراطورة بتربيتى الشبان الأكفاء» (١٩) وكانت الخزانة تتكلف غالباً في مكافأة هؤلاء المحظوظين - وإن كانت التكلفة على الأرجح أقل كثيراً مما كانت تنفقه فرنسا على خليعات لويس

الخامس عشر ومحظياته . وفي تقدير كاستيرا أن الانحوة الخمسة أورلوف تسلموا سبعة عشر مليون روبل ، وبوتمكن خمسين مليوناً ، ولانسكوى ٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠ . وقد ارتدت بعض هذه النفقة إلى روسيا في صورة الخدمة الفعالة . فقد أضاف بوتمكن مثلاً ، وهو أكثر عشاقها حظوة وتديلاً ، أقاليم درت على الامبراطورية الربح الوفير .

ولكن لم كانت تغير وتبادل في عشاقها بهذه الكثرة ، حتى انها اتخذت منهم واحداً وعشرين في أربعين سنة ؟ لأن بعضهم أخفق في واجب أو أكثر من واجباتهم المزدوجة ، وبعضهم تبين عدم وفائه : وبعضهم مست الحاجة إليه في مواقع بعيدة . من ذلك أن أحدهم ، ويدعى ريمسكى كورساكوف ، فاجأته في مسكنها بين ذراعي وصيفة شرفها ، فاكتفت كاترين بطرده ، وتركها آخر يدعى مامونوف لأنه آثر عليها رفيقة أكثر شباباً . وأقالته الامبراطورة دون أن تنتقم منه . (٢٠) يقول ماسون ، ومن الخصائص الشديدة الغرابة في خلق كاترين أن أحداً من المقربين إليها لم يجلب على رأسه كرهها أو انتقامها ، وإن أساء إليها العديلون منهم ، ولم يكن تركهم مناصبهم بسببها . ولم ير الناس قط أحدهم ينزل به العقاب . . . وفي هذا تلبس كاترين أسمى من جميع النساء . (٢١)

بعد تولى كاترين العرش احتفظ جريجورى أوزلوف بمكانته المرموقة عشر سنوات ، وقد أطرته كاترين في حب فقالت :

« إن للكرنت جريجورى عقل النسر ، فانا لم ألق في حياتى رجلاً أوتى فيها أدق والطف لأى أمر يرضه طالع به أو حتى يقترح عليه . . . ونزاهته تعصم من أى تهجم عليه . . . ومن أسف أن التعليم لم يتح له أى فرصة لصقل سجاياه ومواهبه ، وهى فى الحق فائقة ، ولكن حياته العشوائية تركتها كالأرض المراحة . » (٢٢)

ثم كتبت فى موضع آخر ، أن هذا الرجل كان خليقاً بأن يظل (عشيقها وأثرها) إلى النهاية لولا أنه كان أول من مل صاحبه . (٢٣)

وقد جاهد جريجورى لتحرير الأتقان ، واقترح تحرير المسيحيين من ربة العثمانيين ، وأحسن البلاء فى الحروب ، وأغضب الحاشية بكبريائه وخطرسته وراغ من ذراعى كاترين . وقد أقصى فى ١٧٧٢ إلى حيث الثراء والبدعة فى ضياعه . أما أخوه الكسى فقد أصبح أمير البحر الأول ، وقاد الأسطول الروسى إلى النصر على الأتراك ، وظل محتفظاً بالحظوة طوال العهد ، وعمر حتى قاد أفواجه ضد نابليون .

وحل محل جريجورى فى حظوته فى فائق الحسن مغمور يدعى الكسيس فاسيلتشيك ، دسه حزب من أحزاب البلاط على كاترين ليصرف فكرها عن أورلوف المنفى ، ولكنها وجدته غير كفء لافى السياسة ولا فى غير السياسة ، فأحلت مكانه (١٧٧٤) جريجورى ألكسندروف قش بوتمكنين ، وكان ضابطاً فى حرس الخيالة ، الدين ارتدت زيهم (١٧٦٢) لنقودهم ضد بطرس ، فلما لاحظ بوتمكنين أن سيفها تنقصه الشراية التى يعز بلبسها الحرس ، انزع شرايته من مقبض سيفه وركب فى جرأة خارج صفوف الجيش ، وقدم لها هذا الوسام ، فقبلته ، وأغتفرت له جرأته ، وأعجبت بوجهه الوسيم وجسمه المفتول . وكان أبوه - وهو كولونيل متقاعد من صغار النبلاء - قد قرر أن يكون ابنه قسيساً ، وتلقى بوتمكنين قدراً لا يستهان به من التعليم فى التاريخ والدراسات الكلاسيكية واللاهوت ، وأثبت تفوقه فى جامعة موسكو . ولكنه وجد حياة الجيش أنسب لمزاجه الجموح الحصب الخيال من المدرسة اللاهوتية . وقد سحره بالطبع ما اجتماع لكاترين من جمال وسلطان ، فقال عنها إنها إذا دخلت حجرة مظلمة أنارتها» (٢٤) .

وفى حرب ١٧٦٨ قاد فوج خياله ببسالة مستهترة حملت كاترين على أن تبعث إليه بإطراء شخصى . فلما عاد إلى سانت بطرسبرج أكلته الغيرة من الإخوة أورلوف وفاسيلتشيك . وتشاجر مع الأخوة أورلوف ، وفى معركة معهم فقد إحدى عينيه (٢٥) . ولكى يخرج الأمباطورة من عقاه - أو يدخل نفسه فى عقاها - ترك البلاط ، واعتزل فى ضاحية ، ودرس اللاهوت ، وأطلق شعره ولحيته ، وأعلن أنه سيترهب ، فرق له قلب كاترين ، وبعثت إليه تقول أنها تقدره تقديراً

تقديرًا كبيراً ، ودعته ليعود . فحلق لحيته ، وهذب شعره ، وارتدى بزته العسكرية ، وظهر في البلاط ، واهتز طرباً لبسات الأباطورة . وحين افتقدت كاترين الكفاية في فاسيلتشيك فتحت ذراعها لبوتمكين ، وكان يومها في الرابعة والعشرين ، في أوج عنفوانه وفتنته . وسرعان ما هامت به هيامه بها ، وراحت تحبوه بوصلها ، وتغدق عليه الروبلات ، والأراضي ، والأقنان ، وحين كان يغيب كانت ترسل إليه رسائل غرامية بريئة من مظهر الجلالة .

« ما أعجب حالي ! كل شيء اعتدت أن أسخر منه وقع لي الآن ، لأن حبي لك أعماني . فالعواطف التي ظننتها بلهاء مفرطة غير طبيعية أمارسها أنا نفسي الآن . اني لا أقوى على ابعاد عيني الغبيتين عنك »

« لا نستطيع الإلتقاء إلا خلال الأيام الثلاثة القادمة ، فبعدها يحل أول أسبوع في الصوم الكبير ، المخصص للصلاة والصيام . وسيكون اللقاء إنمًا كبيراً . أن مجرد التفكير في هذا البعد يبكيني » (٢٦)

وعرض عليها الزواج ، ويعتقد بعض المؤرخين أنهما تزوجا سرًا ، وفي خطابات عدة تدعوه «زوجي الحبيب» وتتكلم عن نفسها فتقول «زوجتك» (٢٧) ، رغم أننا يجب ألا نستخلص الحقيقة أبداً من مجرد الألفاظ ويبدو أنه ملها ، ربما لهيامها الجموح به ؛ وتبين أن صوت المغامرة أقوى لديه من الدعوة للهجوم على قلعة فرغ من فتحها . وقد ظل نفوذه عليها عظيماً حتى أن معظم المقربين الذين خلفوه لم يخلفوه إلا بعد الحصول على موافقته .

وهذا ما حدث لبيوتر زافودوفسكى ، الذي استندفاً في خدرها من ١٧٧٦ إلى ١٧٧٧ ، ولسيمون زوريتش (١٧٧٧ - ١٧٧٨) ، وإيفان رمسكى - كورساكوف (١٧٧٨ - ١٧٨٠) . ولم تشعر بغرام يملك عليها لها مرة أخرى إلا حين اتخذت ألكسيس لانسكوى (١٧٨٠) عشيقاً . فهذا الفتى لم يكن وسيماً كيساً مثقفاً فحسب ، بل كان صاحب حس شعري

(م ه قصة الحضارة ، ج ٤١)

مرهف وحب إنسانى للخير ، وصديقاً ذكياً للآداب والفنون . « لقد بدا أن الجميع يشاركون الملكة فى ولعها به » (٢٨) . وفجأة أصيب بالأم لا تطاق فى الأوجاع ، واشتبهت الحاشية فى أن يكون بومتكين قد دس له السم ، ثم مات رغم كل جهود الأطباء ورعاية كاترين المخلصة ، ولفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعها . وقضت ثلاثة أيام فى عزلة وحزن . ونحن نسمع المرأة من خلف الحائكة - والقلب من خلف التاريخ - فى رسالة كتبها فى ٢ يوليو ١٧٨٤ .

« خيل إلى أنى هالكة بعد هذه الحسارة التى لاتعوض . . . لقد عللت نفسى بأنه سيكون العون لى فى شيخونحتى . كان مجاملاً ، وتعلم الكثير ، واكتسب كل ميولى . . . كان فتى أقوم على تربيته ، وكان شاكراً ، رقيقاً ، طيباً » . . . ان لانسكوى لم يعد له وجود . . . وباتت حجرتى وكراً فارغاً بعد أن كانت تفيض إشراقاً وبهجة ، ولا قدرة لى إلا على جر نفسى إليها كأننى طيف من الأطياف . . . لا أستطيع النظر إلى وجه إنسان دون أن يختنق صوتى . . . لا أستطيع أن أذوق النوم ولا الطعام . . . ولست أدرى ماذا يكون مصيرى » (٢٩) .

وظلت عاماً تحرم نفسها من العشاق ، وأخيراً استسلمت لألكسيس إرمولوف (١٧٨٥ - ١٧٨٦) ، الذى ساء بومتكين كثيراً فاستعيب عنه سريعاً بالكسيس مامونوف . ولكن سرعان ما زهد ألكسيس فى خليلته ذات السبعة والخمسين ، واستأذن فى الزواج من الأميرة شرباتوف ، واحتفلت كاترين بالعروسة فى زفاف رسمى بالبلاط ، ثم صرفتهما محمليين بالهدايا (١٧٨٩) (٣٠) . وآخر القائمة هو بلاتون زوبوف (١٧٩٦ - ٨٩) وكان ملازماً فى حرس الحياالة ، مفتول العضل دمث الطباع . وكانت كاترين شاكراً له خدماته ، فاضطلعت بالإشراف على تعليمه ، وانتهت معاملته معاملة الأم لابنها . وقد لازمها حتى مماتها .

بين الحب والحرب ، وسياسة الدولة والدبلوماسية ، وجدت هذه المرأة المدهشة وقتاً للفلسفة . وقد تكون فكرة عن سمو المكانة التى بلغتها جماعة

« الفلاسفة » الفرنسيين حين نرى أكفأ حاكمين من حكام القرن الثامن عشر يعترضان بتبادل الرسائل معهم ويتنافسان على الظفر بشنائهم .

وكانت كاترين قبل ولايتها العرش بزمن طويل تستطيب أسلوب فولتير وفكاهته الذكية وعباراته المجردة من التوقير ، وتحلم بأن تكون ذلك الحاكم « المستبد المستنير » الذي راود أحلامه . ولا بد أنها أعجبت بديدرو أيضاً ، لأنها في سبتمبر ١٧٦٢ عرضت أن تطبع الموسوعة في سانت بطرسبرج إذا أمعنت الحكومة الفرنسية في حظرها . ولم يبق من الرسائل التي كتبتها لفولتير قبل ١٧٦٥ إلا واحدة ، وقد ردت على أبيات أرسلها لها في أكتوبر ١٧٦٣ :

« لأول مرة آسف على أنني لست شاعرة ، وأن يكون ردى على أبياتك بالضرورة نثراً لا شعراً . ولكنى أود أن أقول لك انى منذ ١٧٤٦ مدينة بأعظم الفضل لك . فقبل تلك الحقبة لم أكن أقرأ شيئاً غير الروايات ، ولكن حدث أن وقعت كتبك في يدي مصادفة ، وبعدها لم أكف عن قراءتها ، ولا رغبت في قراءة كتب أقل جودة في الكتابة أو أقل ثقيفاً . . . وهكذا لا أفتأ أعود إلى خالق ذوقى عودتى إلى أعماق أسباب تسليتى ، وأؤكد لك يا سيدى أنني إن كنت قد حصلت أى معرفة فالفضل فيها لك . وأنا الآن أقرأ مقالك « في التاريخ العام » ، وبودى لو حفظت كل صفحة منه عن ظهر قلب» (٣١) .

وظلت كاترين طيلة حياتها ، أو حتى مماتهم ، تراسل فولتير وديدرو ودالمبير ومدام جوفران وجريم وكثيرين غيرهم من وجوه الفرنسيين . وأسهمت في المال الذي جمعه فولتير لقضية كالاس وسيرفانس وقد أسلفنا القول أنها أمرت باستيراد شحنات كبيرة من الساعات من فرنیه ، ومن الجوارب التي صنعها عمال فولتير ، وأحياناً فولتير نفسه (ان جاز لنا أن نصدق الشعب العجوز) . وكان من بواعث فخره أن الرؤوس المتوجة أغدقت، عليه أسباب التكريم ، وقد كافأ كاترين بأن أصبح مندوبها الصحفي في فرنسا . وقد برأ ساحتها من الاشتراك في جريمة قتل بطرس الثالث ، وكتب يقول « أعلم أن

كاترين تلومها بعض الشائعات التافهة حول زوجها ، ولكن هذه أمور عائلية لا شأن لي بها» (٣٢) . وناشد أصحابه أن يؤيدوه في الدفاع عن كاترين ، فكتب إلى دارجنتال يقول :

« هناك صنيع آخر أرجو أن تسديه لي ، وهو يخص كاترين . يجب أن ندعم سمعتها في باريس بين أفاضل القوم ووجهائهم ... وعندى أسباب قوية للاعتقاد بأن الدوقين براسلان وشوازيل لايعتبرانها أكثر نساء العالم نقاء ضمير ، ومع ذلك فأنا أعلم ... بأنه لم يكن لها يد في موت زوجها السكير . . ثم إنه كان أكبر أحقق ترربع على عرش ... ونحن مدينون بالفضل لكاترين لأنها أوتيت الشجاعة لخالع زوجها ، وهي تسوس ملكها بحكمة واعتزاز ، ويبغي أن نبارك رأساً متوجاً ينشر التسامح الديني في أرجاء ١٣٥ درجة طولية . . . إذن أرجوك أن تذكر كاترين بخير كثير (٣٣) .

أما مدام دو دفان فقد رأت أن تبرئة الأمبراطورة هذه مخزية جداً ، كذلك أدانتها مدام دشوازيل وهوراس ولبول (٣٤) . وما كان يتوقع من براسلان وشوازيل اللذين يوجهان علاقات فرنسا الخارجية أن يعجبا بإمبراطورة تعارض النفوذ الفرنسي في بولنده وتتحداه في تركيا . وكانت الشكوك تساور فولتير ذاته بين حين وحين . فلما سمع بمصرع إيفان السادس ، سلم في حزن ب « أن علينا أن نخفف قليلا من غلوائنا في التعمس » لكاترين (٣٥) . ولكنه ما لبث أن أطرى برنامجها التشريعي ، ورعايتها للفنون ، وحملتها لنشر الحرية الدينية في بولنده ، ونخلع عليها الآن (١٨ مايو ١٧٦٧) لقب « سميراميس الشمال » . وحين خاضت الحرب ضد تركيا قطع هجومه على الكنيسة الكاثوليكية I'imfame ليمتدح حملتها الصليبية لإنقاذ المسيحيين من المسلمين .

أما ديدرو فقد استهواه بالمثل ذلك الجمال المتربع على العرش ، وكان له في ذلك مبررات قوية . ذلك أن كاترين سمعت أنه ينوى بيع مكتبته ليجمع مهراً لابنته ، فأصدرت تعليماتها لوكيلها الباريسي بأن يشتريها بأى ثمن يطلبه ديدرو ، فطلب ستة عشر ألف جنيه وقبضها . ثم رجعت ديدرو أن يحتفظ

بالكتب حتى مماته ، وأن يكون حارسها على المكتبة نظير راتب قدره ألف جنيه في العام ، وزادت بأن دفعت راتبه مقدماً عن خمسة وعشرين عاماً . وأصبح ديدرو بين عشية وضحاها رجلاً غنياً ومحامياً يدافع عن كاترين . فلما دعت لزيارتها لم يستطع أن يرفض . قال « يجب أن يرى الإنسان امرأة كهذه ولو مرة في العمر » (٣٦) .

وبعد أن دبر شؤون المال لزوجته وابنته خرج وهو في الستين (٣ يونيو ١٧٧٣) في الرحلة الطويلة الشاقة إلى سانت بطرسبرج . ولبت شهرين في لاهاي يرشف حلاوة الشهرة على مهل ، ثم واصل الرحلة بطريق درسدن وليبزج ، وحرص على أن يتجنب برلين وفردريك الذي كان قد أبدى عنه بعض الملاحظات الشائكة . وأصيب مرتين خلال الرحلة بالمغصن إصابة عنيفة ، ثم وصل إلى سانت بطرسبرج في التاسع من أكتوبر ، واستقبلته كاترين في العاشر منه . كتب يقول « ليس هناك من يعرف خيراً منها فن رفع الكلفة عن محدثها » (٣٧) . ودعته للتكلم في صراحة ، « كما يتكلم رجل لرجل » . ففعل ، وأوماً لإيماءاته على عاداته ، وأكد نقاطه بصفح فخذي الإمبراطورة . كتبت كاترين لمدام جوفران تقول « ان ديدرو هذا رجل غريب الأطوار . فأنا أخرج من لقاءاتي معه بفخدين مرضوضتين سوداوين تماماً . وقد اضطررت إلى وضع منضدة بيننا وقاية لنفسى ولإعضائي » (٣٨) .

وقد حاول فترة أن يلعب دور الدبلوماسي كما حاول فولتير مع فردريك ، وأن يصرف روسيا عن تحالفها مع النمسا وبروسيا إلى تحالف مع فرنسا (٣٩) ؛ ولكنها سرعان ما صرفته إلى موضوعات أقرب إلى صناعته . وأخبرها في شيء من التفصيل كيف يمكن أن تحول روسيا إلى بلد مثالي ، واستمعت إليه جذلة ، ولكنها ظلت على تشككها . وقد استعادت فيما بعد هذه الأحاديث في رسالة كتبها للكونت لوى - فليب دسيجور . قالت :

« تحدثت معه كثيراً ومراراً ، ولكن بفضول أكثر من الفائدة . ولو صدقته لانقلب كل شيء في مملكتي ، فالتشريع والإدارة والمالية - كلها

كانت تنقلب رأساً على عقب لتفسح مجالاً لنظريات غير عملية . . . ثم قلت له في صراحة : « يا مسيو ديدرو ، لقد أصغيت بمنتهى اللذة لكل ما أوحى به فكرك اللامع . . أن المرء ، بكل مبادئك السامية ، قد يؤلف كتباً رائعة ، ولكنه يخسر في تجارته . . . أنك تشتغل على الورق ، الذي يتحمل كل شيء . . أما أنا ، الامبراطورة المسكينة ، فأشتغل على جلد البشر ، وهو جلد سريع التهييج حساس على نحو مختلف» . . . وبعدها قصر كلامه على الأدب^(٤١) . وحين وقعت على مذكرات كان قد كتبها « بتعليقات صاحبة الجلالة الامبراطورة . . . لوضع القوانين » وصفحتها (بعد وفاته) بأنها « محض هذيان ، لا أثر فيه لمعرفة بالحقائق ولا لتدبير ولا لنظر ثاقب »^(٤١) . ومع ذلك استمتعت بحديثه المفعم حيوية ، وكانت تبادل له الأحاديث كل يوم تقريباً خلال مقامه الطويل (*) .

وبعد أن أنفق ديدرو خمسة أشهر من البهجة الغامرة في صحبتها ، والتعب في بلاطها ، نوى الرحيل إلى أرض الوطن . فأمرت كاترين بصنع عربة خاصة له يستطيع أن يتكئ فيها مستريحاً . وسألته أى الهدايا ترسلها إليه فقال لا شيء ، ولكنه ذكرها بأنها لم تف بوعدها أن ترد له نفقات رحلته ، وقد قدرها بألف وخمسمائة روبل ، فنفحته بثلاثة آلاف وبخاتم ثمين ، وعينت ضابطاً ليرافقه حتى لاهاي . فلما عاد إلى باريس أثني عليها ثناء الشكر والعرفان .

ولم تحاول كاترين الاتصال بروسو ، الذي كان نقيضها إلى حد مؤلم في الطبع والأفكار ، ولكنها صادقت جريم ، لأنها عرفت أن صحيفته « الرسائل الأدبية » تصل إلى أيدي الأوربيين ذوى النفوذ . واتخذ أول خطوة بعرضه (١٧٦٤) أن يوافقها برسائله الدورية ، فوافقت ونقدته ألفاً وخمسمائة روبل في السنة . وقد رآها أول مرة حين ذهب إلى سانت بطرسبرج (١٧٧٣) في بطانة أمير هسي - دار مشقات لحضور زفاف أنحت الأمير إلى الغراندوق بولس . وقد وجدته كاترين أكثر واقعية من ديدرو . مطالعاً إطلاعاً مفيداً

(*) لعل القصة التي زعمت أن أويلر أريك ديدور أمام الحاشية الروسية بهرمان جبرى رهسى على وجود الله قصة مشكوك في صحتها (٤٢) .

جداً على جميع مناحي ذلك العالم الباريسي الذي سحرها بأدبه وفلسفته وفنه ونسائه وصالوناته . ودعته «للردشة» معها كل يوم تقريباً خلال شتاء ١٧٧٣ - ١٧٧٤ وقد كتبت إلى فولتير عن هذ اللقاءات : « ان حديث السيد جريم يمتعني ، ولكن الأشياء التي نود أن نتبادل الكلام فيها من الكثرة بحيث اتسمت لقاءاتنا إلى الآن بالحفاصة أكثر من اتسامها بالنظام أو التتابع» وفي حرارة هذه الأحاديث كان عليها المرة بعد المرة أن تذكر نفسها بأن عليها (على حد قولها) أن تعود إلى «أكل العيش» أكل عيشها بالالتفات إلى مهمة الحكم (٤٣) . وعاد جريم إلى باريس يطفح تحمساً لكاترين «غذاء روحى ، وعزاء قلبى ، وفخر عقلى ، وبهجة روسيا ، وأمل أوروبا» (٤٤) . وعاد إلى زيارة بطرسبرج في ١٧٧٦ ، وكان يلقاها كل يوم تقريباً على مدى عام . ورجته أن يمكث ويشرف على التنظيم الجديد للتعليم في روسيا ، ولكنه حن إلى باريس ومدام ريبييه . ولم تكن كاترين بالمرأة الغيور ، فلما سمعت أن مدام ريبييه تعاني أزمة مالية بعثت إليها بطريق رقيق غير مباشر ما يكفي لتلبية حاجاتها (٤٥) . ومنذ ١٧٧٧ قام جريم بمهمة الوكيل لكاترين في فرنسا في المشتريات الفنية والمهام السرية . ودامت صداقته لها إلى النهاية دون أن يكدر صفوها مكدر .

ماذا كانت نتائج هذا الغزل بين الأوتقراطية والفلسفة؟ أما من حيث مصادقتها للفلاسفة بوصفهم وكلاؤها الصحفيين في فرنسا ، فالأثر السياسى كان صفراً ؛ فالسياسة الفرنسية ، ومن ثم المؤرخون الفرنسيون ، ظلوا خصوماً ألداء لبلد كروسيا يحبط الأهداف الفرنسية في أوروبا الشرقية . ولكن إعجابها بأبطال التنوير الفرنسى كان مخلصاً ، لأنه بدأ قبل تقلدها السلطة بزمن طويل ، ولو كان تظاهراً وادعاء لما ثبت للمواجهات الطويلة مع ديدرو وجريم . وقد أعان اتصالها بالفكر الفرنسى على صبغ روسيا المتعلمة بالصبغة الأوروبية ، وعلى تعديل الرأى الغربى الذى رأى في روسيا وحشاً هائلاً جباراً . وقد اقتدى روس كثيرون بكاترين ، وراسلوا الكتاب الفرنسيين ، وشعروا بتأثير الثقافة والعادات والفنون الفرنسية . وزار باريس عدد متزايد من الروس ، ومع أن كثيرين منهم أنفقوا وقتهم في المغامرات

الجنسية ، إلا أن الكثيرين اختلفوا إلى الصالونات والمتاحف والبلاط ،
وقرأوا الأدب والفلسفة الفرنسيين ، وجلبوا معهم أفكاراً شاركت في الإعداد
لتفجر الأدب الروسي في القرن التاسع عشر .

٤ - الحاكمة القديرة

لا يتطرق إلينا المشك في صدق نيات كاترين في مطلع حكمها .

فقد وجدت هذه القرارات في نسخة « تليماك » التي كانت تقرؤها :

« عليك بدراسة الإنسان ، وبتعلم استخدام الرجال بغير الاستسلام لهم
دون تحفظ . وابحثي عن الكفاية الأصيلة وأن وجدت في أقصى الأرض ،
لأنها تكون عادة متواضعة متوارية .

ولا تسمحي لنفسك بأن تصبحي فريسة للمتملقين ، أفهمهم أنك
لا تعبأين بالمديح ولا بالتذلل والخنوع . وضعي ثقتك في أولئك الذين لديهم
الشجاعة للاعتراض على آرائك والذين تهتمهم سمعتك أكثر مما يهمهم
رضاءك .

« كوني مؤدبة ، رحيمة ، منفتحة ، عطوفاً ، متحررة العقل . ولا تدعى
سمو مكانتك بمنعك من النزول في تلطف إلى صغار الناس ، ووضع نفسك
في موضعهم . واحرصي على ألا يضعف هذا اللطف من سلطانك أو ينتقص
من احترامهم لك وانبذى كل تصنع وافتعال . ولا تسمحي للعالم أن
يلوثك إلى الحد الذي يفقدك مبادئ الشرف والفضيلة القديمة .

اقسم بالسماء أن أطبع هذه الكلمات على صفحة قلبي» (٤٦)

وكانت تدأب على الإحاطة بدقائق كل موضوع تتناوله ، وقد كتبت
تعليمات مفصلة عن مئات المواضيع من تدريب الجيش والعمليات الصناعية
إلى زينة حاشيتها وإخراج الأوبرات والتمثيلية . قال أحد كتاب سيرتها
الأولين وكان من أقلهم تعاطفاً :

« ان الطموح لم يطبق في روح كاترين تذوقاً حاراً للذة ، واكتنفاً كانت تعرف كيف تنبذ اللذة ، وتنتقل إلى الاضطلاع بأكثر الواجبات خطراً ، وإلى الممارسة التي لا تكل لشئون الحكم . فتحضر جميع مداولات المجلس ، وتقرأ رسائل سفرائها ، وتعلمي ، أو تشير ... بالردود التي يرد بها . ولا تكل لوزرائها سوى تفاصيل العمل ، ولا تفتأ تراقب تنفيذه » (٤٧) .

واستحالت أو كادت مهمة حكم رقعة ملكها الشاسعة لكثرة القوانين الموجودة (عشرة آلاف) . وتنوعها ، وتناقضاتها ، وفوضاها . وإذ راودها الأمل في أن تؤدي لروسيا ما أداه من قبل جستنيان للدولة الرومانية ، وفي أن تدعم سلطتها ، فإنها دعت إلى موسكو في ١٤ ديسمبر ١٧٦٦ موظفين إداريين وخبراء قانونيين من كل ركن من أركان الامبراطورية ، ليقوموا بمراجعة دقيقة شاملة وجمع وتنسيق للقانون الروسي . واستعداداً لجيئهم أعدت بشخصيات تعاليم « Nakaz » تصف المبادئ التي ينبغي أن يشكل على أساسها القانون الجديد . وقد عكست هذه المبادئ قرائنها لمونتسكيو وبكاريا وبلاكسون وفولتير . واستهلت تعاليمها بالتصريح بأنه يتعين التفكير في روسيا على أنها دواة أوروبية . ينبغي أن يكون لها دستور قائم على « مبادئ أوروبية » . وليس معنى هذا في مفهومها « حكومة دستورية » تخضع الملك لهيئة تشريعية يختارها الشعب . فستوى التعليم في روسيا ان يسمح حتى بحق انتخاب محدود كما يوجد آنشد في بريطانيا . إنما يعني حكومة يحكم فيها الحاكم طبقاً للقانون ، وإن كان هو في نهاية الأمر المصدر الوحيد للقانون . وقد أيدت كاترين النظام الإقطاعي — أعني نظام الولاء والخدمات المتبادلة بين الفلاح والمقطع (التابع) وبين المقطع والسيد الإقطاعي ، وبين السيد والملك — باعتباره نظاماً لاغنى عنه للاستقرار الإقتصادي والسياسي والحربي في روسيا عام ١٧٦٦ (وهي بلد الجاعات التي تكاد تنعزل بعضها عن بعض ، وعن مركز الحكومة ، نتيجة لصعوبات الاتصال والنقل) ، ولكنها ألحت على ضرورة تعريف وتحديد حقوق السادة على أقدانهم قانوناً ، وعلى السماح الأقدان بتملك الأملاك ، وعلى نقل محاكمة الأقدان وعقابهم من السيد الإقطاعي إلى قاضي عمومي يسأل بسأل محكمة إقليمية مسؤولة أمام الملك (٤٨) . وينبغي إن تكون جميع المحاكمات

علنية ، وأن يبطل استخدام التعذيب ، وأن تلغى عقوبة الإعدام قانوناً وواقعاً .
أما العبادة الدينية فينبغي أن تكون حرة ، «فالتعصب هو أضر الكباثر بين
هذه الكثرة من مختلف العقائد» (٤٩) . ثم قدمت هذه التعليمات قبل طبعها إلى
مستشاريها ، فنبهوها إلى أن أى تغيير فجائى من الأحوال المألوفة سيدفع
بالروسيا إلى مهاوى الفوضى ؛ وقد سمحت لهم بتعديل مقترحاتها ، لا سيما
ما استهدف عتق الأرقاء تدريجياً (٥٠) .

وقد دفعت هذه التعليمات التى نشرت فى هولندا فى ١٧٦٧ صفوة
المفكرين الأوربيين إلى الثناء الحماسى عليها ، حتى بعد أن عدلت على هذا
النحو . وأرسلت الامبراطورة نسخة منها رأساً إلى فولتير ، الذى قدم فروض
احترامه المعهودة : «سيدتى ، تلقيت البارحة ضماناً من ضمانات خلودك -
هو مجموعة قوانينك فى ترجمة ألمانية . وقد شرعت اليوم فى ترجمتها إلى
الفرنسية . وسوف تظهر فى الصينية ، وفى كل لسان ، وسوف تكون انجيلا
للشعر أجمعين» (٥١) . وأضاف فى رسائل تالية : «إن المشرعين يحتلون
مكان الصدارة فى هيكل المجد ، أما الفاتحون فيأتون من بعدهم . . . انى أعد
(التعليمات) أجل آثار هذا القرن» (٥٢) . ومنعت الحكومة الفرنسية بيع
(التعليمات) فى فرنسا .

وقدمت «التعليمات» المعدلة إلى «لجنة صياغة القانون الجديد» التى اجتمعت
فى ١٠ أغسطس ١٧٦٧ . وكانت تتألف من ٥٦٤ عضواً تنتخبهم جماعات
شتى : ١٦١ من النبلاء و ٢٠٨ من المدن ، ٧٩ من الفلاحين الأحرار ،
و ٥٤ من القوزاق ، و ٣٤ من القبائل غير الروسية (مسيحيين أو غير
مسيحيين) و ٢٨ من الحكومة . ولم يمثل الاكليروس بصفتهم طبقة ، ولم
يمثل الأقتان اطلاقاً . وكانت اللجنة من بعض وجوهها نظير لمجلس طبقات
الأمة الفرنسى الذى تقرر أن يجتمع فى باريس فى ١٧٨٩ ، وقد أتى المندوبون
للحكومة بقوائم احتوت المظالم ومقترحات الإصلاح من دوائرهم على نحو
ما سيفعل مندوبو ذلك المجلس الأشهر . ورفعت هذه الوثائق إلى الامبراطورة
فأتاحت لها ولمساعدتها مسجلاً قيماً لحالة المملكة .

ولم تخول اللجنة سلطة اصدار القوانين ، بل تقديم المشورة للامبراطورة عن حالة كل طبقة أو اقليم وحاجاته وتقديم الاقتراحات للتشريع . وكفلت للمندوبين حرية الكلام وعدم المساس بأشخاصهم . واقترح بعضهم عتق جميع الأتقان وطلب بعضهم مزيداً من التوسع في حق امتلاك الأتقان . وفي ديسمبر ١٧٦٧ - استراحت اللجنة ، وفي فبراير ١٧٦٨ انتقلت إلى سانت بطرسبرج ، وبلغ مجموع الجلسات التي عقدها ٢٠٣ ؛ وفي ١٨ ديسمبر أجلت إلى أجل غير مسمى لأن نشوب الحرب ضد تركيا استدعى وجود مندوبين كثيرين في الجبهة . ووكلت مهمة صياغة التشريع المقترح إلى لجان فرعية ، ظل بعضها يجتمع حتى ١٧٧٥ ، ولكن لم توضع مجموعة قوانين . ولم تسوء كاترين تماماً هذه النتيجة غير الحاسمة ، فقالت «إن اللجنة . . . أعطتني النور والمعرفة عن جميع الامبراطورية ، وأنا الآن على بيضة مما يلزم ، وأعرف بم ينبغي أن أهتم . وقد فصلت اللجنة جميع أقسام القانون ، ووزعت الشؤون تحت رؤوس مواضيع ، وكنت خليقة بأن أفعل أكثر من هذا لولا الحرب مع تركيا . واكننا أدخلنا وحدة لم نعهد لها إلى الآن في مبادئ النقاش وطرائقه » (٥٢) . وقد أظهرت كاترين للنبلاء في الوقت نفسه مبلغ عرض القاعدة التي تركز عليها سلطاتها . واقترحت اللجنة قبل انفضاضها أن تخلع عليها لقب «الكبرى» ، فرفضت ، ولكنها وافقت على أن تلقب «أم الوطن» .

وأصبحت اثنتان من توصيات كاترين قانوناً : إلغاء التعذيب وقرار التسامح الديني . وقد توسع في هذا التسامح : فسمح القانون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية بأن تنافس اليونانية الأرثوذكسية ، وحمى اليسوعيين حتى بعد أن حل البابا كلمنت الرابع عشر طائفهم (١٧٧٣) ، وأذن للتجار الفولجا بأن يعيدوا بناء مساجدهم . وسمحت كاترين لليهود بدخول روسيا ، ولكنها أخضعتهم لضرائب خاصة ، وقصرت إقامتهم على مناطق معينة (ربما تحقياً لسلامتهم) . ثم تركت الراسكولنيكيين - المنشقين الدينيين - أحراراً في ممارسة شعائرهم دون عائق ، وكتبت إلى فولير تقول «صحيح أن عندنا متعصبين يحرقون أنفسهم لأنهم لم يعودوا مضطهدين من الغير ، ولكن لو حدثنا حدودهم المتعصبون في الدول الأخرى لما نجم عن ذلك ضرر يذكر» (٥٤) .

وأبهج جماعة الفلاسفة بصفة خاصة إخضاع كاترين الكنيسة الروسية للدولة . وشكوا بعضهم من أنها لاتزال تحضر الخدمات الدينية (وكذلك كان يفعل فولتير) ، وأدرك أكبرهم سناً أن حضورها أمر لاغنى عنه للاحتفاظ بولاء الشعب . وقد حولت بمرسوم أصدرته في ٢٦ فبراير ١٧٦٤ جميع أراضي الكنيسة ملكاً للدولة . وبدأت الدولة منذ الآن تدفع رواتب رجال الدين الأرثوذكس - وبهذا ضمنت تأييدهم للحكومة . وأغلق الكثير من أديرة الرهبان والراهبات ، ومنع الباقي منها من قبول أكثر من عدد معلوم من المترهبين الجدد، ورفعت السن القانونية لنذر الرهبنة . واستخدمت الموارد الفائضة من المؤسسات الكنسية في إنشاء المدارس والملاجئ والمستشفيات (٥٥).

وعارض رجال الدين والنبلاء التوسع في التعليم الشعبي مخافة أن يفضى انتشار المعرفة بين الجماهير إلى الهرطقة والكفر والتحزب ، وأن يعرض النظام الإجتماعي للخطر . هنا بدأت كاترين - كما بدأت في غيره - بتطلعات تحررية . فلجأت إلى جريم :

« أصغوا إلى لحظة يا أصدقائي الفلاسفة : ستكونون لطافاً ظرافاً إذا تفضلتم برسم خطة للشباب ، من ألف باء إلى الجامعة . . . ليس عندي - أنا التي لم أدرس في باريس ولم أعش فيها - معرفة بهذا الأمر ولا بصبر به . . انى مهمة جداً بفكرة إنشاء جامعة وإدارتها ، ومدرسة ثانوية (جمنازيوم) وأخرى أولية . . . وإلى أن تستحيبوا لطلبي سأنقب في « الموسوعة » عما أنشده وبالتأكيد سأستخرج منها ما أنشده » (٥٦) .

وقد أثرت فيها أثناء ذلك الحماسة البيداغوجية التي أبدتها إيفان بتسكى ، الذي جاب السويد وألمانيا وهولنده وإيطاليا وفرنسا ، واختلف إلى صالون مدام جوفران ودرس الموسوعة والتي بروسو . ففي ١٧٦٣ أنشأت في موسكو مدرسة القطاء ، خرجت في ١٧٩٦ أربعين ألف طالب ، وفي ١٧٦٤ فتحت مدرسة للبنين في سانت بطرسبرج ، وفي ١٧٦٥ أخرى للبنات ، وفي ١٧٦٤

حول دير سمولني إلى معهد سمولني لبنات النبلاء - وهذا صدى لمعهد مدام دمانتون «سان سير» ، وكانت كاترين أول حاكم روسي يفعل شيئاً لتعليم النساء . ولما فت في عضدها افتقارها إلى المعلمين المؤهلين ، بعثت الطلاب الروس للدراسة التربوية في إنجلترا وألمانيا والنمسا وإيطاليا ، وأنشئت مدرسة للمعلمين في ١٧٨٦ .

وقد أعجبتها اصلاحات يوزف الثاني التعليمية في النمسا ، فطلبت إليه أن يعيرها شخصاً خبيراً بنظامه ، فأرسل إليها تيودور يانكوفش الذي وضع لها خطة نشرتها باسم «قانون المدارس الشعبية» (٥ أغسطس ١٧٨٦) . وأنشئت مدرسة أولية في أهم بلدة في كل إقليم ، ومدرسة ثانوية في كل مدينة كبرى من مدن ست وعشرين مقاطعة ، وفتحت هذه المدارس لجميع الأطفال أيا كانت طبقتهم ، ولم يسمح فيها بالعقاب البدني ؛ وكانت الدولة تمددها بالمدرسين والكتب المدرسية . بيد أن المشروع أحبطه إلى حد كبير عزوف الآباء عن ارسال أبنائهم إلى المدارس بدلا من استخدامهم للشغل في البيت . وخلال السنوات العشر التي انقضت منذ تأسيس «المدارس الشعبية» حتى وفاة كاترين ، زاد عددها ببطء من أربعين إلى ٣١٦ مدرسة ، وعدد المعلمين من ١٣٦ إلى ٧٤٤ ، وعدد التلاميذ من ٤,٣٩٨ إلى ١٧,٣٤١ . وفي عام ١٧٩٦ كانت روسيا لا تزال شديدة التخلف عن الغرب في ميدان التعليم الشعبي .

أما التعليم العالي فكان متاحاً على نطاق ضيق في جامعة موسكو وفي المعاهد أو الأكاديميات الخاصة ، وأنشئت مدرسة تجارية في ١٧٧٢ ، وأكاديمية للمناجم في ١٧٧٣ . ووسعت أكاديمية العلوم القديمة وزودت بالمال الوافر . وفي ١٧٨٣ ، بناء على إلحاح الأميرة داشكوفافا ، وتمت رآستها ، أنشئت أكاديمية روسية لتحسين اللغة ، وتشجيع الأدب ، ودراسة التاريخ ، فأصدرت المترجمات ، ونشرت الدوريات ، وصنفت قاموساً صدر في ستة أجزاء بين ١٧٨٩ ، ١٧٩٩ .

وقد روعت كاترين نسبة الوفيات العالية في روسيا ، وبدائية وسائل

حفظ الصحة العامة والنظافة الشخصية ، فاستقدمت الأطباء الأجانب ، وأسست كلية للصيدلة في موسكو ، ودبرت المال لإنتاج الأدوات الجراحية . وفتحت في موسكو ثلاثة مستشفيات جديدة وملجأ ومستشفى للأمراض العقلية وفي سانت بطرسبرج ثلاثة مستشفيات جديدة بما فيها « مستشفى سرى » للأمراض التناسلية^(٥٧) . وفي ١٧٦٨ أدخلت لروسيا التطعيم ضد الجدري ، وهدأت مخاوف الشعب بوضعها شخصها وهي في الأربعين ليجرى عليها العلاج كثنائي شخص في روسيا ، وما لبثت كاترين أن كتبت لنولتير تقول « إن الذين طعموا هنا في شهر واحد أكثر ممن طعموا بفينينا في سنة »^(٥٨) . (وفي ١٧٧٢ دخل التطعيم نابلي لأول مرة ، وفي ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر بالجدري غير مطعم) .

٥ - الاقتصادية

من القوانين الأساسية التي أصدرتها كاترين قانون (١٧٦٥) قضى بأجواء مسح لجميع أراضي روسيا . وقد قوبلت هذه العملية بمقاومة شديدة من الملاك . وحين اختتم العهد كانت قد شملت عشرين إقليماً من خمسين ، ولكنها لم تستكمل حتى منتصف القرن التاسع عشر . وبينما كان المسح جارياً أدركت الامبراطورة في وضوح مثير للهمم كيف يعتمد اقتصاد روسيا على تنظيم الزراعة بواسطة نظام قوامه السادة والأقنان . وفي ١٧٦٦ أعلنت عن جائزة من ألف دوقاتية تمنح لأفضل مقال عن تحرير الأقنان . وفاز بالجائزة بياردى دلايه إكس لا شابل ، الذي رأى أن « العالم كله يطالب الملوك بتحرير الفلاحين » وتنبأ بأن الإنتاج الزراعي سيزداد زيادة هائلة « إذا ملك الفلاحون الأرض التي يزرعونها »^(٥٩) . غير أن الملاك الأشراف حذروا كاترين من أن الفلاح سيهجر القرى إلى المدن ان لم يربط بالأرض وبسيده الإقطاعي ، أوسهاجر من قرية إلى قرية في لامبالاة أكثر ، فيخلق بذلك الفوضى ، ويمزق الاقتصاد ، ويعوق تجنيد أبناء الفلاحين الأشداء للجيش أو الأسطول .

ومضت القيصرة الحائرة في مشروعها على حذر ، فالنبلاء يملكون المال

والسلاح اللذين يستطيعان الإطاحة بها ، وهم في هذه المحاولة يستطيعون الاعتماد على تأييد الأكليروس الذين ساءهم فقدان أراضيهم وأقنانهم . ونخافت من التحلل الذي قد تحدثه هجرة جماعية من الفلاحين المحررين إلى مدن غير مستعدة لإسكانهم أو إطعامهم أو تشغيلهم . على أنها قامت بخطوات نحو عتق الأقتان . فجددت مرسوم بطرس الثالث الذي حرم شراء الأقتان لتشغيلهم في المصانع ، وفرضت على أرباب العمل أن يدفعوا أجور عمالهم نقداً وأن يراعوا ظروف العمل التي يقررها موظفوا المدينة أو « المير »^(٦١) ؛ ولكن حتى مع هذا ظل وضع الأقتان الصناعيين وضع العبودية القاسية المذمومة . وحرمت كاترين القنية في المدن التي أنشأها^(٦١) ، ثم عتقت الأقتان المشتغلين على الأراضي التي أخذت من الكنيسة نظير دفعهم رسماً صغيراً^(٦٢) ، على أن هذه التحسينات طغت عليها منحها المتكررة من أراضي الدولة لمن أخلصوا لها الخدمة كالقواد أو رجال الدولة أو العشاق ، وعلى هذا النحو أصبح أكثر من ٨٠٠,٠٠٠ من الفلاحين الأحرار أقتاناً . وارتفعت نسبة الأقتان في سكان الريف من ٥٢,٤٪ في بداية العهد إلى ٥٥,٥٪ في ختامه ، وزاد عدد الأقتان من ٧,٦٧٠٠,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠,٠٠٠^(٦٣) . ثم أكملت كاترين استسلامها للنبلاء بـ «خطابات الامتياز للنبلاء» (١٧٨٥) : فقد أكدت فيها من جديد إعفاءهم من ضريبة الرؤوس ، والعقوبة البدنية ، والخدمة العسكرية ، وحقهم في ألا يحاكموا إلا أمام أمراءهم ، وفي استخراج المعادن من أراضيهم ، وفي امتلاك المشروعات الصناعية ، وفي السفر إلى خارج البلاد كما يشاءون . وقد حظرت على الملاك أن يكونوا طغاة أو قساة ، ولكنها أبطلت مفعول هذا الحظر بمنع الأقتان من أن يرسلوا إليها شكواهم .

ولجأ الفلاحون بعد أن أخذ صوتهم على هذا النحو إلى الفرار أو التردد أو الاغتيال . وقد قتل ثلاثون من السادة الإقطاعيين بأيدي فلاحهم بين عامي ١٧٦٠ و ١٧٦٩ ؛ واندلعت خمسون فتنة بينهم فيما بين عامي ١٧٦٢ و ١٧٧٣^(٦٤) . وكانت هذه الفتن تخمد سريعاً حتى قام زعيم ثائر عرف بوجاشيف كان قوزاقياً من إقليم الدون ، حارب في صفوف الروس ضد

البروسيين والأتراك ، ثم طلب تسريحه ، ولكن طلبه رفض ، ففر من الجيش ، وقبض عليه ، فعاود الفرار ، وارتضى حياة طريد القانون . وفي نوفمبر ١٧٧٢ ، بعد أن شجعه الرهبان الساخطون ، أعلن أنه بطرس الثالث الناجى بأعجوبة من كل المحاولات التي بذلت لقتله . وجذب الفلاحين وقطاع الطرق للانضواء تحت لوائه ، حتى أحس بأن ساعده اشتد ، فهجر بعصيان الغاصبة كاترين (سبتمبر ١٧٧٣) . وتوافد عليه قوزاق الأورال والفولجا والدون ؛ وآلاف الرجال الذين حكم عليهم بالسخرة في مناجم الأورال ومصاهر المعادن ؛ وفئات «المؤمنين القدامى» التواقين إلى الإطاحة بالكنيسة الأرثوذكسية ؛ وقبائل التتار والقرغيز والبشكير المحلية الذين لم ينسوا إكراه اليزابث لهم على الدخول في المسيحية ؛ ثم أقنان آبقون من ساداتهم ، ومساجين هربوا من السجون : هؤلاء تقاطروا على لواء بوجاشيف حتى اجتمع له عشرون ألف رجل تحت إمرته . فزحفوا ظافرين من مدينة إلى مدينة ، وهزموا القوات التي سيرها ضدهم الحكام المحليون ، واستولوا على مدن هامة مثل قازان وساراتوف ؛ ثم صادروا المؤن ، وقتلوا الملاك ، وأكروهوا الفلاحين المعارضين على الانضمام إليهم ، وزحفوا مصعبدين في حوض الفولجا صوب موسكو . وأعلن بوجاشيف أنه لن يرتقى هو العرش هناك ، بل سيبوثة الغراندوق بولس . ولكنه - بمزاح رهيب على الأرجح - لقب زوجته الفلاحة بالملكة ، وكبار ضباطه بأسماء ضباط كاترين : الكونت أورلوف ، والكونت بانين ، والكونت فورونشوف .

وسخرت كاترين أول الأمر من هذا «المركيز بوجاشيف» ، ولكنها حين علمت أن العصاة استولوا على قازان ، جردت قوة كبيرة تحت إمرة الجنرال بيوتر ايفانوفتش بانين لإخماد الفتنة . ونحف النبلاء لنجدتها بعد أن أدركوا أن الخطر يهدد هيكل الإقطاع بأسره ، وسرعان ما انضم الجنرال الكسندر فاسيليفتش سوفوروف إلى بانين بفرسانه الذين أصبحوا أحراراً في التحرك بعد عقد الصلح مع الأتراك ؛ وأوقع الخلل في صفوف العصاة التقاؤهم بجنود مدربين تحت قيادة ضباطهم الأباطوريين ، فتقهقروا من موقع إلى آخر ، واستنفدوا مؤنهم ، وبدأوا يتضورون جوعاً . وأعتقل بعض

زعمائهم - الطامعين في الجبذ والعفو - أبو جاشيف وسلموه للمتصرين . فجىء به إلى موسكو في قفص من حديد ، وحوكم في الكرملين ، وقطع رأسه ومزق جسده أربعاً ، وعرض رأسه على عمود في أربعة أقسام من المدينة ليكون « عبرة لغيره » ثم أعدم خمسة من ضباطه ، وجلد غيرهم على هذا الجانب من الموت ، ونفوا إلى سيبيريا . وكان من نتائج الفتنة دعم التحالف بين الامبراطورة والنبلاء .

على أنها تحدت النبلاء شيئاً ما بتأييدها لنمو طبقة قوامها رجال المال والأعمال . ذلك أن اقتناعها ببراهين الفزيوقراطيين دعاها لإقرار حرية التجارة في المحاصيل الزراعية (١٧٦٢) ، ثم في كل شيء ، وأنهت (١٧٣٥) الاحتكارات المعتمدة من الحكومة بإصدارها قراراً يبيح لكل إنسان حرية الاضطلاع بأي مشروع صناعي وتنفيذه . وقد أحرر نمو الطبقة الوسطى غلبة الصناعة التي تقوم في الأكواخ والعزب ، ومشاركة النبلاء في المغامرات الصناعية والتجارية . وزادت المصانع من ٩٨٤ إلى ٣,١٦١ في عهد كاترين ، ولكن هذه كان أكثرها ورشاً صغيرة لا تستخدم من الصناع إلا القليلين . وزاد سكان المدن من ٣٢٨,٠٠٠ في عام ١٧٢٤ إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ في عام ١٧٩٦ - ومع ذلك لم يزل أقل من أربعة في المائة من مجموع السكان (٦٥) .

ولم تأل الامبراطورة الكثيرة الشراغل جهداً في النهوض بالتجارة دون أن تلقى إلا التأييد الضنين من حاشيتها النبيلة . لقد كانت الطرق غاية في السوء ، ولكن الأنهار كثيرة ، وقد ربطتها القنوات في شبكة مفيدة . وفي عهد كاترين بدىء شق قناة بين الفولجا والنييفا لربط البلطيق ببحر قزوين ، وقد خططت لقناة أخرى تصل بحر قزوين بالبحر الأسود (٦٦) . وظفرت بالتفاوض أو بالحرب بحرية مرور التجارة الروسية دون معوق في البحر الأسود ومنه إلى البحر المتوسط . ثم حثت دبلوماسيتها على عقد المعاهدات التجارية مع إنجلترا (١٧٦٦) وبولنده (١٧٧٥) والدنمرك (١٧٨٢) وتركيا (١٧٨٣) والنمسا (١٧٨٥) وفرنسا (١٧٨٧) . ونمت التجارة الخارجية من ٢١,٠٠٠,٠٠٠ روبل عام ١٧٦٢ إلى ٩٦,٠٠٠,٠٠٠ عام ١٧٩٦ (٦٧) .

في هذه الأرقام يجب أن نحسب حساب تضخم العملة الذي تدفع به الحكومات نفقات حروبها . وقد اقترضت كاترين من داخل البلاد وخارجها ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل لتمويل حملاتها على تركيا ، وأصدرت نقوداً ورقية تجاوزت كثيراً أى غطاء من الذهب . وفقد الروبل أثناء حكمها ٣٢٪ من قيمته . وفي هذه الفترة ذاتها ، ورغم زيادة الإيرادات من ٢١٥,٠٠٠,٠٠٠ (٦٨) . وأكثر هذا الدين نجم عن الحروب التي كسرت شوكة تركيا ، ومدت حدود روسيا إلى البحر الأسود .

٦ - المحاربة

بدأت كاترين بأهداف سلمية كما يبدأ كل فيلسوف : فأعلنت أن مشاكل الامبراطورية الداخلية ستستغرق اهتمامها ، وأنها ستجنب كل صراع مع الدول الأجنبية إذا لم يتحرش بها أحد . فثبتت صلح بطرس الثالث مع بروسيا ، وأنهت حربه مع الدنمرك . وفي ١٧٦٢ رفضت الإغراء بفتح كورلاند أو التدخل في بولنده ، وقالت «عندى ما يكفي من البشر الذين على إسعادهم ، ولن يزيدني رفاهية ذلك الركن الصغير من أركان الأرض» (٦٩) . ثم خفضت الجيش ، وأهملت ترسانات السلاح ، وسعت إلى التفاوض مع تركيا لإبرام معاهدة للصلح الدائم .

ولكنها كانت كلما درست الخريطة وجدت عيباً في حدود روسيا . ففي الشرق كانت الامبراطورية محمية جيداً بجبال الأورال وبحر قزوين وضعف الصين . وفي الشمال تحميها الثلوج . أما في الغرب فالسويد مستولية على جزء من فنلنده ، قد يتوقع منه الهجوم في أى لحظة يشنه شعب مافئ يسوؤه ما غصبه منه بطرس الأكبر ؛ وكانت بولنده وبروسيا تسدان الداريق إلى «أوروبا» والاضطباغ بحضارتها . أما في الجنوب فقد سد التتار ، الخاضعون لحان مسلم يسيطر عليه الترك ، الطريق إلى البحر الأسود . فأى إجهاضات للتاريخ أعطت روسيا جغرافية كهذه ، وحدوداً شاذة كهذه ؟ وهمس في أذنها القائد القديم مونيش ، والقائد الجديد جريجورى أورلوف ، بأن الوضع يكون معقولاً أكثر لو كان البحر الأسود هو الحد الجنوبي ، وبأنه يكون

جميلاً رائعاً لاستطاعت روسيا الاستيلاء على الآستانه والتسلط على البوسفور .
أما نيكيتا بانين ، وزير خارجيتها من ١٧٦٣ إلى ١٧٨٠ ، فقد فكر في طرق
لإعلاء نفوذ روسيا في بولنده ومنع هذا البلد الأعزل من الوقوع في براثن
بروسيا .

وتأثرت كاترين بحججهم ، وأخذت تتحرق شوقاً لأن تبوء وطنها الثاني
مكاناً في السياسة يتفق ومكانها على الخريطة . فلم ينقض عام على تقلدها السلطة
حتى انطلقت إلى سياسة خارجية لا ترضى في طموحها بأقل من جعل روسيا
الدولة المحورية على القارة . كتبت إلى الكونت كيزرلنج ، سفيرها في وارسو
تقول «أقول لك ان هدفي أن أرتبط بروابط الصداقة مع جميع الدول ، في
تحالف مسلح ، حتى أستطيع على الدوام أن أقف في صف المظلوم ، وبهذا
أصبح الحكم لأوروبا (٧٠) .

وأنت عليها فترات كانت فيها قاب قوسين من هدفها هذا . وآية ذلك أنها
سحبت روسيا من حرب السنين السبع فإنها في الواقع حسمت ذلك الصراع
الذي شمل القارة كلها لصالح فردريك . وفي عام ١٧٦٤ أبرمت مع فردريك
معاهدة كانت نذيراً بتقطيع أوصال بولنده . ثم استغلت حاجة الدنمرك إلى
تأييد روسيا لها ضد السويد لتهيمن على سياسة الدنمركيين الخارجية . وفي عام
١٧٧٩ كانت حكماً بين فردريك ويوزف في معاهدة تشن ، وأصبحت
حامية الدستور الإمبراطوري الألماني . وفي ١٧٨٠ ربطت الدنمرك والسويد
وبروسيا والنمسا والبرتغال بالروسيا في «عصبة حياذ مسلح» لحماية السفن
المحايدة في الحرب الدائرة بين انجلترا ومستعمراتها الأمريكية ، فتقرر
ألا تتعرض السفن المحايدة للهجوم من أى من الطرفين المحاربين ما لم تحمل
ذخائر حربية ؛ وأن الحصار لكى يكون شرعياً ولكى يحترم يجب أن يكون
حقيقياً لا مجرد إعلان على الورق .

وقبل أن قلبت الأحلاف ذلك القلب الثاني بزمن طويل بدأ الصراع
الطاحن على التسلط على البحر الأسود . وقد نشأت أول حروب كاترين

الركية نتيجة ثانوية غريبة لغزوها لبولنده . ذلك أنها كانت قد أرسلت هناك جيشاً لإعانة غير الكاثوليك في كفاحهم لنيل حقوق متساوية مع الأغلبية الكاثوليكية ؛ وحمل الكاثوليك سفيراً بابوياً على أن يفهم تركيا أن فرصتها حانت لتهاجم روسيا ؛ وأيدت فرنسا الاقتراح ، وحرضت السويد ونحان القرم على الانضمام للهجوم (٧١) . وحزن فولتير على امبراطورته التي أحقد بها الخطر . وكتب إليها يقول «إن تجنيد سفير بابوي الأتراك في حربه الصليبية عليك لموضوع جدير برواية هزلية إيطالية عنوانها « مصطفي الحليف الفاضل للبابا ! » ، فالموقف كاد يغيره بأن يكون مسيحياً . لا بل انه في خطاب أرسله إلى كاترين في نوفمبر ١٧٦٨ اقترح عليها حرباً مقدسة على الكفار .

« إنك تكرهين البولنديين على أن يكونوا متسامحين سعداء على الرغم من سفير البابا ، ويبدو أنك تأقن من المسلمين عنفا . فإذا شنوا عليك الحرب فرما تبلورت فكرة بطرس الأكبر في جعل الآستانة عاصمة للأمبراطورية الروسية . . . وفي ظني أنه لو قدر على الأتراك أن يطردوا من أوروبا يوماً فسيكون هذا على أيدي الروس . . . فليس يكفي إذلالهم ؛ بل يجب ردهم إلى موطنهم إلى الأبد (٧٢) .

ورفضت السويد أن تشارك في الهجوم على روسيا ، ولكن تثار القرم اجتاحتها مستعمرة «الصرع الجديدة» الروسية ، الحديثة ، (يناير ١٧٦٩) . وزحف جيش تركي عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل صوب بودوايا لينضم إلى جيش الاتحاد البولندي . ورفضت كاترين أن تسحب قواتها من بولنده . وجردت ثلاثين ألف مقاتل يقودهم ألكسندر جولتسين وبيوتر روميا نتسيف لهزيمة التتار ورد الترك ؛ فلما قبيل لها إن عدد هؤلاء الترك هائل أجابت « إن الرومان لم يكونوا يعبأون بكثرة أعدائهم ، إنما كانوا يسأون ، أين هم ؟ » (٧٣) . ورد التتار على أعقابهم ، واستولى الروس على آزوف وتاجانروج شمالي الدون ؛ وهزم سبعة عشر ألف روسي ١٥٠,٠٠٠ تركي في كاجول (١٧٧٠) وتقدم روميا نتسيف حتى بلغ بوخارست ، حيث استقباه السكان الأرثوذكس

بمظاهر الفرح والتهليل . وفي ١٧٧١ اجتاح فاسيلي ميخايلوفتش دوجوروكي القوم وقضى على الحكم التركي هناك .

وأكثر حتى من هذا إثارة للعجب والأعجاب جرأة الكسي أورلف ، الذي قاد أسطولاً روسياً نحر به عباب المانش ، والأطلنطي ، والبحر المتوسط ، وهزم الأسطول التركي تجاه خيوس ، وأباده في خزمي (يوليو ١٧٧٠) ؛ غير أن الضرر الذي لحق بمراكبه كان فادحاً فلم يتح له مواصلة انتصاراته .

على أن أحداثاً أخرى لم تبعث مثل هذه البهجة في فؤاد كاترين . من ذلك أن طاعوناً تفشى في الجيش الروسي على طول الدانوب ثم ارتد إلى موسكو حيث كان يحصد ألف روح كل يوم في صيف ١٧٧٠ . وكانت عليمة بأن فردريك ينظر باستنكار إلى امتداد ملكها وسلطانها ؛ وأن يوزف الثاني يزعجه تقدم روسيا إلى حدود النمسا في البلقان ؛ وأن فرنسا لاترك حجراً لاقلبه دعماً لحليفها تركيا ؛ وأن إنجلترا ستقاوم بشدة تسلط روسيا على البوسفور ؛ وان السويد إنما تربص بها الدوائر . فدعت كاترين الترك إلى مؤتمر ، فحضرها ، ولكنهم حزنوا لأصرارها على استقلال القرم ؛ وفي ١٧٧٣ استؤنفت الحرب .

وفي يناير ١٧٧٤ مات مصطفى الثالث ؛ وقرر خلفه أن تركيا قد بلغت من الفوضى والإرهاق حداً يهدد وجودها كدولة أوربية . فاعترفت تركيا بمقتضى صلح كجوق قينارجي (في رومانيا) ٢١ يوليو ١٧٧٤ باستقلال القرم (التي ظلت تحت حكم التتار) ، ونزلت لروسيا عن آزوف ، وكرش ، وبنيكالي ، وكلبورون (على مصب دنيبر) . وفتحت البحر الأسود والبوسفور والدردنيل للمراكب الروسية ، ودفعت لروسيا تعويض حرب قدره ٤,٥٠٠,٠٠٠ روبل ، ومنحت العفو للمسيحيين الذين شاركوا في ثورات على حكاهم الأتراك ، واعترفت بحق روسيا في حماية المسيحيين في تركيا . وكان هذا في جملته من أميز المعاهدات التي أبرمتها روسيا في تاريخها (٧٤) . فقد غدت روسيا الآن من دول البحر الأسود ؛ وتركت

القرم وغيرها من أقاليم التتار في جنوبي روسيا مفتوحة أمام الغزو الروسي المبكر ، واستطاعت الامبراطورة الشاكة أن تظهر بمظهر المدافعة عن الإيمان . وراحت كاترين - بعد أن أسكرها النصر - تحلم بتحرير اليونان - أعنى بفتحها ، وبتتويج حفيدها قسطنطين في الآستانة رأساً لأمبراطورية جديدة . وأبهجت فؤاد فولتير الشائخ بروى الألعاب الأولمبية وقد ردت إلى مجدها التليد ؛ فكتبت إليه تقول «سوف تجعل ممثلين يونانيين يمثلون التراجيديات اليونانية القديمة في مسرح (ديوينسيوس) بأثينا» . فلما تذكرت الجيوش والحزاة التي استنفدت أضافت : «على أن أمارس الاعتدال ، وأقول إن السلم خير من أروع حروب الدنيا» (٧٥) .

وأخذت الآن تحل محل فردريك كأشهر ملوك أوروبا ، وتعجب الناس جميعاً من سعيها الحثيث لتحقيق أهدافها ، ومن الامتداد المرعب لسلطانها ، وسافر يوزف الثاني امبراطور النمسا ، الذي طالما انحنى لعبقرية فردريك ، إلى موجيليف ، ومنها أكمل الرحلة الطويلة إلى سانت بطرسبرج ليلتقى بالقيصرة ويسعى إلى التحالف معها . وفي مايو ١٧٨١ أبرمت مع يوزف ميثاقاً للعمل الموحد في بولنده وضد تركيا .

وكان بوتمكنين في غضون هذا يبني لنفسه الشهرة في الجنوب . ذلك أنه نظم وسمح وأطعم جيشاً جديداً عدته ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وبني أسطولا للبحر الأسود ، له موانئ في سباستبول وأودسا وترسانة في خرسون ، واستعمر أقطار روسيا الجنوبية ذات المستوطنات الضئيلة ، وأسس المدن والقرى ، وأقام المصانع ، وزود المستعمرين بالماشية والآلات والبنار - وكل هذا ليوفر قواعد للتموين في حملة حربية تضيف القرم إلى تاج كاترين ، وربما ليظفر بتاج نفسه . وتشاجر تثار القرم وانقسموا ، فالان بوتمكنين زعماءهم بالرشا ، فلما غزا شبه الجزيرة في النهاية (ديسمبر ١٧٨٢) لم يلق من المقاومة إلا أقلها ؛ وفي ٨ أبريل ١٧٨٣ ، ورغم احتياجات تركيا عدمة الجدوى ، ابتلعت مملكة الروس القرم . ورفق بوتمكنين مشيراً ، ورئيساً للكلية الحربية ، وأميراً لطورس ، وحاكماً عاماً للقرم . ونفحته الأمبراطورة فوق هذا كله

بمكافأة من ١٠٠,٠٠٠ روبل ، أنفقها بوتمكين على الخليلات والشراب والطعام .

ورأت كاترين هي أيضاً ان الوقت قد حان لشيء من الاسترخاء . فجمعت بين اللهو والعمل بترتيبها «رحلة ملكية» فخمة على الياكس والماء تفتش خلالها على فتوحها وتترك انطباعاً قوياً في نفوس هذه الأقاليم - وأوروبا كلها - براء بلاطها وأهنته . وفي ٢ يناير ١٧٨٧ ، غادرت القصر الشتوي مدثرة بفرائها وشرعت في رحلتها الطويلة في «برلينيه» أي مركبة مقللة من الكبر بحيث تحتوي - فضلاً عن شخصها الذي اتسعت أبعاده الآن - عشيقها مامونوف صاحب الخطوة آنشد ، وكبيرة وصيفاتها ، وكلباً صغيراً ، ومكتبة صغيرة . وتبعها أربع عشرة عربة و ١٧٠ مركبة جليد ، تحمل سفراء النمسا ، وبريطانيا ، وفرنسا - كوبنزل ، وفنزهربرت ، والكونت سيجور - مضافاً إليهم الأمير دلين وجيش من الموظفين والبطانة والموسيقيين والخدم . وكان بوتمكين قد سبقها بأيام ليعدها الطريق ، وليضيئه بمئات المشاعل ، ويرتب لكل ليلة وجباتها وأماكن لنوم الجميع . وكان الموكب إذا مر بمدينة كبرى استراح يوماً أو يومين ريثما تلتقي القيصرة بوجوه المدينة ، وتستعرض أحوالها ، وتوجه أسئلتها ، وتوزع اللوم أو المكافأة . وبدأت كل مدينة على الطريق في أحسن مظهر عملاً بتحذيرات بوتمكين وتعليماته ، فاغتسلت وتزينت كما لم تفعل قط من قبل ، سعيدة ولو ليوم واحد في حياتها .

وفي كيف أشرف بوتمكين على نقل البلاط المتنقل إلى سبع وثمانين سفينة كان قد أعدها وزينها . وعليها أبحر الركب الامبراطوري هابطاً الدنيبر . وعلى طول النهر شاهدت كاترين «القرى البوتمكينية» التي هيأها أمير طورس الأريب وجلاها ليدخل السرور إلى قلبها ، وربما ليترك في نفوس الدبلوماسيين انطباعاً قوياً عن ثراء روسيا . وبعض هذا الثراء ارتجله بوتمكين ، وبعضه كان حقيقياً . «أما أنه شيد القرى الكاذبة على الضفتين ، ودرب الفلاحين ليخلقوا وهماً بما هم عليه من تقدم ، فذلك من شطحات خيال دبلوماسي سكسوني» (٧٦) . فقد قام الأمير دلين بعدة رحلات

على الشاطئ ليستكشف ما وراء الواجهة ، فقال إنه رغم أن بوتمكنين لجأ إلى بعض الحيلة ، فإنه (أى دلين) راعته «المنشآت الفخمة وهي بعد في مهدها ، والمصانع النامية ، والقرى ذات الشوارع المنتظمة التي تحفها الأشجار» (٧٧) . ولعل كاترين نفسها لم تنخدع ، ولكنها ربما استنتجت كما استنتج سيجور ، أنه حتى لو كان نصف ثراء تلك المدن ونظافتها مظهرًا زائلاً ، فإن حقيقة وجود سباستبول فعلاً — المدينة والقلاع والميناء ، وكلها بنى على شواطئ القرم في عامين — هذه الحقيقة كفت لجعل بوتمكنين جديراً بالثناء . وقد وصفه الأمير دلين الذي كان يعرف تقريباً كل إنسان ذى شأن في أوروبا بأنه «أعجب رجل التقيت به في حياتي» (٧٨) .

وفي كانيوف جاء ستانسلاس بونيا توفسكى ملك بولنده ، ليقدم فروض الولاء للمرأة التي منحته حبها وعرشه . وفي موقع أبعد على الدنيبر الأدنى ، عند كايداكني ، انضم يوزف الثاني إلى الموكب الذي اتخذ طريقه من ثم برا إلى خرسون فالقرم . هنالك داعبت الأمبراطورة ، والأمبراطور ، والحاكم العام ، أحلامهم بطرد الترك من أوروبا ، فحلمت كاترين بالاستيلاء على الآستانة ، ويوزف بابتلاع البلقان ، وبوتمكنين بتولى عرش داشيا (رومانيا) . ونصحت إنجلترا وبروسيا السلطان عبد الحميد بأن يوجه ضربته إلى الروس في غفلة منهم قبل أن يستكملوا استعداداتهم الحربية (٧٩) . وكان في وقاحة السفير الروسي في الآستانة ما هياً لتركيا حافزاً إضافياً ، فحبسه السلطان ، وأعلن الجهاد ، وطالب برد القرم ثمناً للصالح . وفي أغسطس ١٧٨٧ عبر الجيش التركي الرئيسي الدانوب وزحف على أوكرانيا .

لقد تعجل بوتمكنين في الإعلان عن فرجه ؛ ذلك أن روسيا لم تكن مستعدة بعد للامتحان النهائي ؛ لذلك نصح الامبراطورة بالتخلي عن القرم . ولكنها وبخته على جنبه الذي لم تعهده فيه ، ثم أمرته هو وسوفوروف وروميا نتسيف أن يعدوا كل القوات المتاحة لهم وينطلقوا للقاء الغزاة ؛ أما هي فقد انسحبت إلى سانت بطرسبرج . ودحر سوفروف الترك في كلبورون ، وحاصر بوتمكنين أوشاكوف المشرفة على منافذ دنيبر وبوج . وبينما كان الجهاد والحرب

الصليبية يواجه أحدهما الآخر في جنوبي روسيا ، قررت السويد أن الفرصة وانتهت أخيراً لاسترداد ما فقدت من أقاليم . فجدد جوستاف الثالث حلفاً قديماً مع الترك بعد أن شجعتهم إنجلترا وبروسيا ^(٨١) ، وطالب كاترين ببرد فنلنده وكاريليا للسويد ، والقرم لتركيا . وقد انفصل الحديث عن هذه الحرب في موضع لاحق ، أما الآن فحسبنا أن نقول إن أسطولاً سويدياً أنزل بالروس في البلطيق هزيمة فاصلة في ٩ يوليو ١٧٩٩ ، وكان قصف المدفعية السويدية يسمع من القصر الشتوي ؛ وفكرت كاترين في إخلاء عاصمتها . على أن مفوضيها ما لبثوا أن اقنعوا السويد بأن تبرم الصلح (١٥ أغسطس ١٧٩٠) .

وغدت كاترين الآن حرة في تركيز قوات ضد الترك ، وانضمت النمسا إلى روسيا في الحرب . وأنهى بوتسكين حصار أوشاكوف بأن أمر رجاله بالهجوم مهما كان الثمن . وكلف النصر الروس ثمانية آلاف قتيل ، وختمت المعركة الضارية بمذبحة أتت على الضحايا دون تمييز (١٧ ديسمبر ١٧٨٨) وتقدم بوتسكين ليستولى على بندر ، واستولى النمساويون على بلغراد ، ودحر سوفروف الأتراك في رمنيك (٢٢ سبتمبر ١٧٨٩) . وبدأ أن تركيا مقضى عليها بالفناء .

على أن الدول الغربية أحست أن الموقف يدعو إلى العمل الموحد ضد كاترين أن أريد ألا يقع البوسفور - ذلك المعقل الاستراتيجي - في يدها فتصبح روسيا السيد المتسلط على أوروبا . وبعد موت فردريك الأكبر (١٧٨٩) رأى خليفته فردريك ولیم الثاني في فزع تحرك روسيا صوب الآستانة ، وتحرك النمسا في البلقان ؛ وبين روسيا والنمسا وهما بهذه القوة الجديدة سببت بروسيا تحت رحمتهم . وعليه ففي ٣١ يناير ١٧٩٠ ربطت حكومته مع الباب العالي في ميثاق ألزمه بأن يعان الحرب على روسيا والنمسا جميعاً في الربيع ، وبألا يضع السلاح إلا إذا ردت لتركيا كل أقليمها التي خسرتها .

وبدا أن المد السياسي يتحول ضد كاترين . فقد أضعف قوة يوزف الثاني نشوب الثورة في الأراضي الواطئة النمساوية وانتشار الفوضى في المجر ؛ ثم مات في ٢٠ فبراير ١٧٩٠ ، وأبرم خلفه هدنة مع الأتراك . وحثت

انجلترا وبروسيا كاترين مرة أخرى على عقد الصلح على أساس الاحتفاظ بكل الأراضي التي تم الاستيلاء عليها في الحرب ؛ ولكنها أبت ؛ ذلك أن استيلاءها على أوشاكوف كان قد فتح الطريق أمام روسيا إلى البحر الأسود ، فهي لا تريد أن تتخلى عن هذا الكسب الحيوي . ثم إن قوادها كانوا يسرون من نصر إلى نصر ، وتوجوا انتصاراتهم باستيلاء سوفوروف وبوتكين على مدينة اسماعيل (٢٢ ديسمبر ١٧٩٠) ؛ وقد خسر الروس في سبيل الاستيلاء على هذا المعقل التركي الواقع على الدانوب عشرة آلاف مقاتل ، وخسر الترك ثلاثين ألفاً . وبعد هذه الويلمة الدموية انتكس بوتكين الذي انهكته الحرب إلى ضرب من الكسل المترف والسفاح المخزى مع بنات أخيه ؛ وفي ١٥ أكتوبر ١٧٩١ مات على طريق قريب من ياسى . وأغمى على كاترين ثلاث مرات في اليوم الذي سمعت فيه نبأ موته .

وفي مارس ١٧٩١ اقترح وليم بت الابن على البرلمان إرسال إنذار نهائي إلى روسيا يطالها بأن ترد لتركيا كل الأقاليم التي استولت عليها في الحرب الراهنة ، واقترح إرسال أسطول بريطاني إلى البلطيق نذيراً بالحرب . ولم تجب كاترين ، أما البرلمان فقد ثنى بت عن إنفاذ مشروعه حين سمع التجار البريطانيون يتحسرون على ضياع تجارتهم مع روسيا . وأما تركيا فقد كفت عن الصراع بعد أن انهكتها الحرب ، ف وقعت في جاسى (٩ يناير ١٧٩٢) معاهدة ثبتت سيطرة روسيا على القرم وحوضي دنيبر وبوج . وهكذا لم تصل كاترين إلى الآستانة ، ولكنها بلغت ذروة حياتها كأقوى حاكم في أوروبا ، وألمع امرأة في قرنها .

٧ - المرأة

أكانت امرأة ، أم هولة ؟ رأينا أنها في مستهل حكمها كانت فاتنة الجسد ، وفي عام ١٧٨٠ كانت قد سمت ، ولكن هذه السمنة لم تفعل بها شيئاً إلا إضافة الثقل إلى العظمة . وقد وصفها الأمير دابن (الذي كان من أوائل من لقبوها «الكبرى» (٨٤) وصفاً مهلباً فقال :

« كانت في ١٧٨٠ لاتزال حسنة الصورة ، وفي استطاعة الناظر إليها ان يستنتج أنها كانت فيما مضى رائعة الجمال أكثر منها وسيمة . ولم يكن بالمرء حاجة إلى فراسة ليقرأ على جبينها ، كما يقرأ في كتاب ، العبقرية والعدالة والشجاعة والعمق ورباطة الجأش ولطف الطبع والهدوء والتصميم . وقد اكتسبت صدرها الجميل على حساب نخصرها الذي كان يوماً ما شديد النحول ؛ ولكن الناس عادة يسمنون في روسيا . . . ولم يلحظ المرء قط أنها قصيرة القامة» (٨٢) .

وقد صورها كاستيرا في كتابته عنها عقب موتها بأنها كانت ترتدى ثوباً أخضر في احتشام . « كان شعرها المبدر ببودرة خفيفة ، يطفو على كتفها ، وتعلوه قلنسوة صغيرة مرصعة بالماس . وفي سنها الأخيرة ألفت أن تستعمل قدراً كبيراً من الروج ، لأنها كانت لاتزال تطمع في ألا تسمح لآثار الزمن أن تبدو على وجهها ، ومن المحتمل أن هذا الطموح وحده هو الذي دعاها للعيش بمنتهى الاعتدال» (٨٣) .

كانت مغرورة ، واعية في غير موارد بثقافتها وسلطتها . قال يوزوف الثاني لكاونتز « إن الغرور معبودها ، وقد أفسدها الحظ وثقافتها المسرفة» (٨٤) . وفي رأى فردريك الأكبر أن كاترين لو كانت تراسل الله لادعت لنفسها مرتبة مساوية له على الأقل (٨٥) . ومع ذلك كانت تتحدث إلى ديدرو كما يتحدث « رجل إلى رجل » ، ورجت فالكونيه أن يسقط من حديثه لها عبارات المجاملة . وكانت (باستثناء بعض جرائم القتل المحتملة ومذابح الحرب المبررة) لاتقل لطفاً وأنساً عن تشارلز الثاني ملك انجلترا أو هنرى الرابع ملك فرنسا . وفي كل يوم كانت تلقى من نوافذها الخبز لآلاف الطيور التي تجيئها بانتظام لتطعم (٨٦) . وفي سنوات ملكها الأخيرة كانت تطلق العنان بين الحين والحين لنوبات غضب لاتليق بصاحبة السلطان المطابق ، ولكنها حرصت على ألا تصدر أمراً أو توقع ورقة وهي في هذه النوبات البركانية ، وسرعان ما أخذت تشعر بالحجل من هذه التفجرات ، وأخذت

نفسها بالتحكم في أعصابها . أما عن شجاعته فقد نبذت أوربا كل شك فيها .

كانت شهوانية بلا مرء ولا مبالاة ، ولكن غرامياتها لا تؤذينا بشيء بقدر ما تؤذينا « حديقة ظباء » لويس الخامس عشر . وقد درجت على ما درج عليه كل حكام زمانها فأخضعت الأخلاق للسياسة ، وأخمدت المشاعر الشخصية إذا عرقلت توسيع رقعة دولتها . وحيث انعدم مثل هذا الصراع كان لها كل حنان المرأة ورقتها ، تحب الأطفال ، وتلاعبهم وتمرح معهم ، وتعلمهم ، وتصنع لهم اللعب . وكانت في رحلاتها تحرص دائماً على أن يطعم السائقون والخدم كما ينبغي أن يطعموا^(٨٧) . وبين الأوراق التي وجدت على منضدتها بعد موتها قبرية كتبها لنفسها ، « كانت نخفر في يسر ، ولا تبغض أحداً ، وإذا كانت متسامحة ، متفهمة ، ذات طبع مرح ، فقد أوتيت روحاً جمهورية وقلباً عطوفاً »^(٨٨) .

ولم تكن عطوفاً على ولدها البكر ، من جهة لأن بولس أخذ منها بعد ولادته بقليل ، وقام على تربيته بانين وغيره تحت اشراف اليزابت ؛ ومن جهة لأن المؤامرات التي دبرت لخلعها كانت أحياناً تنوى جعله إمبراطوراً تحت الوصاية ؛ ومن جهة لأن بولس طالما نخامره الظن بأن أمه قاتلة بطرس ؛ كذلك لأن بولس « كان يطيل التفكير دائماً في سرقة حقوقه في خلافة أبيه الاقراضية على العرش » . ولكن كاترين تعلقت بابني بولس الساحرين ألكسندر وقسطنطين ، وأشرفت بشخصها على تعليمهما ، وحاولت إبعادهما عن تأثير أبيهما ، وبيتت أن يرث تاجها ألكسندر لابولس^(٨٩) . أما بولس الذي سعد بزواجه الثاني فكان ينظر في اشمزاز واضح إلى سلسلة العشاق الذين أمتعوا أمه واستنزفوا موارد الدولة .

أما من الناحية العقلية فقد بزت كاترين كل عشاقها . كانت ترضى جشعهم ، ولكن ندر أن سمحت لهم بتقرير سياستها . وقد أحسنت استيعاب الأدب الفرنسي إلى حد أتاح لها مراسلة أقطابه كما يرسل الواحد من جماعة

الفلاسفة صاحبه ؛ لابل إن خطاباتها لفولتير كانت تنافس خطابه لها فطنة وتمييزاً ، وتضارعها رشاقة ونخفة دم . وكانت رسائلها كثيرة العدد كثرة رسائل فولتير مع أنها كتبتها خلال فواصل دسائس القصر ، والثورات الداخلية ، والدبلوماسية الحرجة ، والحروب التي غيرت خرائط الدول . وكان حديثها يجعل ديدرو دائم التنبيه والاستعداد ، ويحرك مشاعر جريم إلى حد الانتشاء . « كان على المرء في تلك اللحظات أن يرى هذا الرأس الفذ الذي هو مزاج من العبقرية والحسن حتى يكون فكرة عن النار التي تحركها ، والسهام التي تطلقها ، والهجمات التي تلاحق . . . الهجمة منها الهجمة . . . ولو كان في طاقى أن أدون هذه الأحاديث كلمة كلمة لأتيح للعالم كلها قطعة نفيسة وربما فريدة في تاريخ العقل البشرى (٩١) . على أنه كان يشرب هذا السيل الدافق من أفكارها اضطراب وعدم استقرار سريعان ؛ فكانت تندفع بأسرع مما ينبغي في مشاريع لم تمنع التفكير فيها ، وكانت أحياناً يهزمها إلحاح الأحداث وكثرة الواجبات . ولكن النتيجة حتى مع هذا كانت هائلة » .

ويبدو أمراً لا يصدق أن تجد كاترين في حياة اضطرت بمثل هذه الأحداث المثيرة سياسية كانت أم حربية وقتاً تكتب فيه قصائد الشعر ، والأخبار التاريخية ، والمذكرات ، والتمثيلات ، ونصوص الأوبرات ، ومقالات المجلات ، وحكايات الجن ، ورسالة علمية عن سيبيريا ، وتاريخاً للأباطرة الرومان ، ومذكرات مستفيضة عن «تاريخ روسيا» وفي ١٧٦٩ - ١٧٧٠ رأت تحرير مجلة هجائية دون أن تعلن عن اسمها ، وكانت هي أهم محرريها . ومن صورها الأدبية صورة وصفت منافقاً في الدين يحضر القداس يومياً ، ويشعل الشموع أمام الصور المقدسة ، ويتمم بالصلوات في فترات متقطعة ، ولكنه يغش التجار ، ويفترى على الجيران ، ويضرب الخدم ، ويندد بالرزيلة الفاشية ويتحسر على الأيام الحالية الطيبة (٩١) . أما حكاية الجن التي كتبتها كاترين ، واسمها «الأمير خلور» فتحكى عن شاب خاض مغامرات خطيرة بحثاً عن وردة خرافية بلاشوك ، ليكشف في النهاية أنه ليس هناك وردة كهذه إلا الفضيلة ، وقد أصبحت هذه القصة من عيون القصص في الأدب الروسي ، وترجمت إلى لغات كثيرة ؛ وكانت

اثنان من مسرحياتها مآسى تاريخية تقلد شكسبير ؛ ومعظمها فكاهيات بسيطة تسخر من المشعوذين والمغفلين والبخلاء والمتصوفين والمسرفين ، وتهزأ بكاليسترو ، والماسون ، والمتعصبين الدينيين . هذه التمثيليات كان يعوزها الدقة والصدق ، ولكنها أبهجت الجماهير مع أن كاترين أخفت أنها مؤلفتها ، وقد وضعت هذه العبارة على ستار المسرح الذى شيده في الهرمтаж « انه يهذب العادات بالضحك » ؛ وكان هذا خير تعبير عن هدف كوميدياتها . أما أفضل مسرحياتها ، واسمها « أوليج » فكانت تتابعاً رائعاً لمشاهد من تاريخ روسيا ، أشاع فيها الحيرية سبعائة مؤد في الرقصات والباليات والألعاب الأولمبية . وكان جل إنتاج كاترين الأدبي يراجع السكرتيرون ، لأنها لم تتمكن قط من الهجاء أو النحو الروسى ، ثم أنها لم تأخذ هوايتها للتأليف مأخذ الجلد الشديد ؛ ولكن الأدب استمد الشجاعة من قدوتها الامبراطورية وأضنى على ملكها عظمة نهائية ومجداً تشوبه الشوائب .

٨ - الأدب

أخذت روسيا تشعر بعدم نضجها الفكرى ، فراح جيش من المؤلفين يقلدون في تواضع النماذج الأجنبية ، أو يترجمون آثاراً حظت بالشهرة في فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا . وجادت كاترين بخمسة آلاف روبل من جيبتها الخاص لتشجيع هذا السيل الدخيل ، وترجمت هي نفسها قصة « بليزير » لمارمونتيل . فلما تحمس الروس للمشروعات العريضة ترجم رحمانينوف ، أحد ملاك الأرض في تامبوف ، أعمال فولتير ؛ وترجم فيريفكين ، رئيس كلية قازان ، إلى الروسية «موسوعة» ديدرو . وترجم غير هؤلاء شكسبير والكلاسيكيات اليونانية واللاتينية ، «وأورشليم المحررة» لتاسو . . .

أما أنجح شعراء العهد فهو جافريل رومانوفتش درزافين . ولد لأسرة رقيقة الحال في أورنبرج الشرقية ، وكان الدم التتارى يجرى في عروقه ، فخدم في فوج بريوبرازنسكى عشرة أعوام ، ورأى كاترين ترقى إلى ذرى السلطة ، وشارك في إخماد فتنة بوجاشيف ضابطاً في الجيش ، وشق طريقه صعباً إلى عضوية مجلس الشيوخ . وحين لاحظ درزافين أن الامبراطورة

أطلقت اسم «فليتسا» على أميرة خيرة في قصة «الأمير خلور» ، أطلق هذا الإسم في قصيدة عاطفية شهيرة (١٧٨٢) على «الملكة الشبيهة بالآلهة لقبيلة قرغيز - قازاق» وتوسل إلى هذه السلطانة قائلاً «علميني كيف أجد الوردة التي لاشوك لها . . . وكيف أعيش حياة تجمع بين اللذة والاستقامة» (٩٢) وحين ناجى الشاعر فليتسا بأن «من قلمها تفيض السعادة على كل البشر الفانين» كان يمتدح كاترين على نحو واضح . وحين لام نفسه «على النوم حتى الظهر ، وتدخين التبغ ، وشرب القهوة . . . وجعل الدنيا ترتعد لنظراتي . . . والانغماس في ولائم فاخرة على مائدة تتألق بالفضة والذهب» ، عرف البلاط كله أن هذه غمزة أراد بها بولتمكين . وقد ارتفع درزافين إلى قمة النشوة في مديح «الإمبراطورة» فليتسا ، التي «تخلق النور من الظلمات ، ولا تؤذي أحداً ، وتقضي عن الهنات ، وتدع الناس يتكلمون كما يشاءون ، وتكتب القصص الخرافية لتعلم شعبها ، وتعلم خلور الأبجدية» (أي حفيدها ألكسندر) . ويختتم الشاعر بقوله : «أتوسل إلى النبي العظيم أن يسمح لي بلمس تراب قدميك ، وأن استمتع بذلك الجدول العذب جدول أفاظك ولحظك . أني أتضرع إلى قوى السماء أن تنشر أجنحتها الزرقاء وتحرسك في الخفاء . . . وأن يسطع صيت أعمالك في الأجيال القادمة سطوع النجوم في السماء» (٩٣) . وأكد درزافين أنه لا يطمع في جزاء على كل هذا المديح العطر ، ولكن كاترين رفته ، وما لبث أن قرب منها قرباً بصره بعيوها ؛ فكف عن كتابة المدائح . واتجه إلى عرش أسى ونظم «قصيدة غنائية للإله» ، مهتماً إياه تعالى على كونه «ثلاثة - في - واحد» وعلى حفظه السماوات في مثل هذا النظام الجميل . وكان أحياناً يهبط إلى الميتافزيقا ، ويردد برهان ديكارت على وجود الله فيقول : «أنا بالطبع موجود ، وإذن فأنت موجود» (٩٤) . وقد ظلت هذه القصيدة الغنائية نصف قرن لا ينافسها شعر في شعبيتها حتى جاء بوشكين .

وقد فاجأ دنيس إيفانوفتش فون فيزين العاصمة بكميديتين رشيقتين هما «اللواء» و «القاصر» . ونجحت الثانية نجاحاً كاملاً حتى أن بولتمكين نصح المؤلف قائلاً «مت الآن ، أو لا تكتب شيئاً بعد اليوم» . بمعنى أن أي شيء يكتبه بعد هذا سيضعف من شهرته (٥٩) . وقد رفض فيزين النصيحة ورأى

تحقيق النبوءة التي احتوتها . وفي سنته الأخيرة جاب غربي أوروبا وأرسل إلى وطنه بعض رسائل ممتازة احتوت إحداها نبوءة فيها رتب الإفتخار «نحن (الروس) بادئون ، أما هم (يقصد الفرنسيين) فمتنهون» (٩٦) .

وأطرف شخصية في أدب عصر كاترين هو نيكولاى إيفانوفتش نوفيكوف . فقد تطور هذا الفتى بعد أن طرد من جامعة موسكو لأكسله وتخلفه ليصبح رجلاً ذا نشاط ذهني لا ينى . ففي الخامسة والعشرين (١٧٦٩) ، في سانت بطرسبرج ، رأس تحرير مجلة «الدبور» التي أطلق عليها هذا الاسم نخبث شيطاني ليعارض دورية سوماروكوف «النحلة النشيطة» . وقد هاجم نوفيكوف بأسلوبه المرع الفساد الذي استشرى في الحكومة ، وهاجم الإلحاد الفولتيرى السائد في الطبقات العليا لأنه مدمر الأخلاق والشخصية ؛ وامتدح بالمقارنة ما افترض وجوده من إيمان الروس المسلم وأخلاقهم المثالية قبل بطرس الأكبر . «وكان قدامى الحكام الروس قد توقعوا أن إدخال الفنون والعلوم سيقضى قضاء مبرماً على أئمن كنز مملكة الروس - وهو أخلاقهم» (٩٧) . هنا أيضاً كان روسو يخوض حرباً مع فولتير . وحدثت كاترين «الدبور» بنظرات متجهمة ، فاحتجبت في ١٧٧٠ . وفي ١٧٧٥ انضم نوفيكوف إلى الماسون الأحرار ، الذين كانوا يزعون في روسيا إلى الغيبية ، والتقوية ، والأوهام «الروزكروشيية» (*) بينما اخوانهم في فرنسا يداعبون الثورة . وفي ١٧٧٩ انتقل إلى موسكو ، واضطلع بأعمال مطبعة الجامعة ، ونشر في ثلاث سنوات من الكتب عدداً يفوق ما أخرجته تلك المطبعة في أربع وعشرين سنة . وحصل بمعونة مالية من صديق له على مزيد من المطابع ، وكون داراً للنشر ، وفتح مكاتب لبيع الكتب في جميع أرجاء روسيا ، وأذاع نشر إنجيله في الدين والإصلاح . وأسس المدارس ، والمستشفيات ، والمستوصفات والبيوت النموذجية للعمال .

فلما أحالت الثورة الفرنسية كاترين من حاكمة مستبدة مستنيرة إلى حاكمة

(*) Rosicrucian نسبة لجمعية سرية اشتهرت في القرنين الـ ١٧ والـ ١٨ وزعمت أنها تملك معرفة سرية للطبيعة والدين . (المترجم)

مستبدة مدعورة ، خشيت أن يكون نوفيكوف بسبيل قلب النظام القائم . فأمرت بلاتون ، مطران موسكو ، أن يفحص أفكار نوفيكوف . وكتب الحبر يقول : «أضرع إلى الله الواسع الرحمة أن يكون هناك مسيحيون مثل نوفيكوف ، لا في القطيع الذي وكله الله وأنت إلى فحسب ، بل في العالم بأسره» (٩٨) . ولكن الإمبراطورة التي ظلت على ربتها رغم ذلك أمرت بسجن نوفيكوف في قلعة شلوسلبورج (١٧٩٢) . هناك ظل حبساً حتى ماتت كاترين . فلما أفرج عنه بولس الأول اعتكف في ضيعته بتخفين ، وأنفق سنيه الأخيرة في التقوى وأعمال البر .

أما ألكسندر نيكولايفتش راد شتشفيف فقد لقي حظاً أشد عثراً . أوفدته كاترين إلى جامعة ليزج ، فتعرف إلى بعض أعمال جماعة الفلاسفة ، وأثر فيه بنوع خاص كتاب روسو «العقد الاجتماعي» كما أثر فيه فضح رينال لوحشية الأوربيين في استغلال المستعمرات وتجارة الرقيق . وعاد إلى سانت بطرسبرج وهو يضطرم بالمثل الاجتماعية ، فلما وكلت إليه إدارة الجمرك تعلم الإنجليزية ليتعامل مع التجار البريطانيين ، ودرس الأدب الإنجليزي ، وأثر فيه خاصة كتاب ستيرن «رحلة عاطفية» . وفي ١٧٩٠ نشر كتاباً من عيون الأدب الروسي اسمه «رحلة من سانت بطرسبرج إلى موسكو» . وقد أقر الكتاب بالإيمان القويم ، ولكنه ندد بخدع القساوسة التي يحتالون بها على سداجة الشعب ؛ وقبل النظام الملكي ، ولكنه برر الثورة على الحاكم الذي ينتهك «العقد الاجتماعي» بتجاهله للقانون . ووصف تمزيق نظام التجنيد الإجباري لأوصال الأسر ، وبغى السادة على أقنانهم . وقال راد شتشفيف إنه أخبر في أحد الأماكن بنبأ مالك هتك عرض ستين فلاحه عذراء . ثم شهر بالرقابة ودافع عن حرية الصحافة . ولم يكن داعية للثورة ، ولكنه طلب التفهم الرحيم لمن يدعون إليها . وناشد النبلاء والحكومة لإنهاء القنينة . «فلترق قلوبكم أيها القساة ؛ حطموا أغلال اخوتكم ، وافتحوا سجون الرق . ان للفلاح الذي يهبنا العافية والحياة الحق في التصرف في الأرض التي يفلحها» (٩٩) .

ومن عجب أن الرقيب أجاز الكتاب . ولكن كاترين خافت في ١٧٩٠ أن يحدو شعبها حدو الثورة الفرنسية . فدونت ملاحظة بضرورة عقاب مغتصب العذارى الستين ، ولكنها أمرت بمحاكمة راد شتشفيف بتهمة الخيانة . ووجدت في كتابه فقرات عن اقتحام الحصون وثورة الجنود على قيصر قاس ، ومدائح للانجليز لمقاومتهم ملكاً ظالماً . فحكم مجلس الشيوخ على المؤلف بالإعدام ؛ وخففت كاترين الحكم إلى النفي عشر سنين في سيبيريا . وسمح الامبراطور بولس الأول لراد شتشفيف بالعودة من المنفى (١٧٩٦) ، ثم دعاه ألكسندر الأول إلى سانت بطرسبرج (١٨٠١) . وهناك انتحر بعد سنة ، لأنه ظن دون مبرر أنه سينفى ثانية . ومصيره ومصير نوفيكوف من الوصمات الكثيرة التي تلتطخ عهداً راعياً .

٩ - الفن

صنعت كاترين للفن أكثر قليلاً مما صنعتها للأدب ، لأن الفن لا يستهوى غير الطبقات العليا ، ولا يقرع ناقوس الثورة . ولكن الموسيقى الشعبية كانت ثورية دون قصد منها ، لأن كلها تقريباً تألف من أغان حزينة في مقام صغير وبمصاحبة شاكية باكية ، لا تحكى قصة القلوب التي انفطرت حباً فحسب ، بل الأنفس التي براها الكد والكدر . وندر أن سمع النبلاء تلك الأغاني ، ولكنهم استمتعوا بالأوبرات الإيطالية التي جلبها إلى سانت بطرسبرج جالوبي ، وبايزيللو ، وساليري وتشياروزا ، الذين كانت الدولة تدفع أجورهم كلهم ، أما كاترين نفسها فلم تكون شديدة الحب للأوبرا . قالت « لأستطيع في الموسيقى أن أميز نغمات غير نغمات كلاوي التسعة ، التي يشترك كل منها بدوره في شرف الوجود في حجرتي ، والتي أستطيع التعرف على صوت كل كلب منها عن بعد » (١٠٠) .

ثم اعترفت أيضاً أنها لاتملك القدرة على فهم الفن . وقد بذلت وسعها لتربي هذا الفهم في روسيا . فوفرت المال الذي مكن بتسكى من أن يدير بالفعل (١٧٦٤) عجلة أكاديمية الفنون التي أنشئت أيام الزابث (١٧٥٧) . واشترت روائع الفن المعترف بقيمتها في الخارج وعرضتها في قاعات تحفها ،

فدفعت ١٨٠,٠٠٠ روبل ثمناً لمجموعة الكونت فون برول في درسدن ،
و ٤٠,٠٠٠ جنيه ثمناً لمجموعة السير روبرت ولبول في هوتن هول ،
و ٤٤٠,٠٠٠ فرنك لمجموعة شوازيل ، و ٤٦٠,٠٠٠ لمجموعة كروزا .
وقد عقدت بهذا كله صفقات رابحة دون أن تدري ، لأن هذه المجموعات
التي التقطتها من هنا وهناك ضمت ألفاً ومائة لوحة من أعمال رفايل ،
وبوسان ، وفانديك ، ورمبرانت ، وغيرها من التحف الخالدة التي زادت
قيمتها مع الزمن وهبوط العملة . واستطاعت من طريق جريم وديدرو
(الذين كانت تتابع نشاط صالونيهما باهتمام) أن تكلف برسم اللوحات فنانيين
فرنسيين - أمثال فرنيه ، وشاردان ، وهودون - ونسخت لها كطلبها
بالحجم الطبيعي لوحات جصية من أعمال رفايل في الفاتيكان وبنيت قاعة
خاصة بها في الأرميتاج .

ولم تكلف الفنانيين الوطنيين إلا بالقليل ، لأن ذوقها الفرنسي لم يجد
في فن جيلها الروسي غير القليل مما له قيمة باقية . . على أنها قدمت المال
لتعليم وإعالة الطلاب في أكاديمية الفنون وأوفدت عدداً منهم للدراسة في غربي
أوربا . وفي تلك الأكاديمية تخرج رسام أحداث التاريخ أنطون لوزنكو ،
ورساما الأشخاص ديمتري ليفتسكى وفلاديمير بوروفيكوفسكى .
أما لوزنكو فقد قضى خمس سنين في باريس وثلاثاً في روما ثم عاد
إلى سانت بطرسبرج (١٧٦٩) ليعلم في الأكاديمية . وقد أثار ضجة بلوحته
المساة « فلاديمير أمام روجنيديا » ، ولكنه - رغم الفداحة واجباته الأكاديمية -
أنفق في أن ينتج الروائع المنتظرة منه ، ثم اختطفه الموت وهو في السادسة
والثلاثين (١٧٧٣) . وأما ليفتسكى فقد استخدمته كاترين ليرسم بعض
الشابات اللاتي كن يدرسن بمعهد سمولني ؛ والنتيجة شاهد بجاهلن الرائع .
وقد سرت اللوحة التي صور فيها كاترين بدانتها تحت أردية فضفاضة .
كذلك جلست لتصورها مدام فيجه لبرون ، وكانت من بين الفنانات
الفرنسيات الكثيرات اللاتي دعتهن كاترين لأضفاء الرشاقة الفرنسية على
الفن الروسي .

وأعظم فنانيها الذين استقدمتهم كان فالكونيه . قدم في ١٧٦٦ ، وأقام
في روسيا اثني عشرة سنة . وقد طلبت إليه كاترين أن يصمم ويصب

بالبرونز تمثالاً لبطرس الأكبر ممتطياً جواده . وكان قد جلب معه شابة تدعى ماري - آن - كولو ، كانت النموذج لرأس التمثال الضخم . وتحدى فالكوفيه قوانين الفيزياء بتمثيله الحصان يقفز في الهواء ، وقائمته الخلفيتان فقط تلمسان أرضاً صلبة ، هي صخرة ضخمة جلبت من كاريليا لتمرز إلى المقاومة الهائلة التي تغلب عليها بطرس ؛ وتحفة تماماً للتوازن أظهر فالكونيه حية نحاسية - رمزاً للحسد - تلدغ ذيل الحصان . وقد احتفظت هذه الرائعة الفنية بتوازنها بينما تغيرت سانت بطرسبرج إلى بتروجراد ثم إلى ليننجراد . واستغرق فالكونيه في هذا العمل وقتاً أطول مما توقعته كاترين ؛ ففقدت اهتمامها به ، وأهملت المثال ، فعاد إلى باريس وقد خاب أملة فيها ، وفي روسيا ، وفي الحياة .

وفي ١٧٥٨ وفد نيكولا - فرانسوا جيبه من فرنسا ليعلم النحت في الأكاديمية . وقد نبغ ثلاثة من تلاميذه في عهد كاترين : تشوين وكوزلوفسكى وشخيدرين . أما تشوين فقد كلفه بوتكين بنحت تمثال « كاترين الثانية » لقاء قصر تاوريدا المقببة (الروتندا) ؛ وقد وصف الخبراء التمثال بأنه « عدم الحياة بارد^(١٠١) » ، وكذلك يبدو التمثال الذي نحته تشوين لبوتكين . أما كوزلوفسكى فقد انتهى إلى مثل هذا الجمود في المقبرة التي نحته للمرشال سوفوروف ، وحتى في تمثاله لآله الحب كيوبيد . أما شخيدرين فجعل أعماله أنتجها في عهد ألكسند الأول : فإلى عام ١٨١٢ ينتمي تمثاله المسمى « الكرتيدات يسندن الكرة السماوية » - وترى فيه امرأة تحمل الدنيا . . وقد تخصص إيفان بتروفتش مارتوس في التماثيل الجنائزية ، وحفلة الجبابات في بطرسبرج بتمثيله « الباكية » ؛ وقد قيل عنه أنه « أبكى الرخام » وقد تخلف النحت الوطني إلا في تقليده للطرز الأجنبية . وكانت الكنائس الأرثوذكسية تحرم التماثيل وقنع النبلاء بالفنانين الذين يعثرون عليهم بين أقنابهم .

ولكن المعمار ازدهر في عهد كاترين ، لأنها صممت على أن تترك بصمتها على عاصمتها . قالت « ان المباني العظيمة تعلن عظمة الحكم ببلاغة لاتقل عن بلاغة الأعمال العظيمة »^(١٠٢) . وكتبت في ١٧٧٩ تقول « أنت تعلم أن هوس البناء أقوى اليوم عندنا مما كان في أى وقت مضى ، ولم يهدم

زلزال قط عمائر قدر العمائر التي شيدناها . . . وهذا الهوس شيء لعين ، فهو ينضب المال ، وكلما بنينا ازددنا رغبة في البناء ، إنه مرض كالسكر بالحمز » (١١٣) . ومع أنها قالت لفالكونيه « انى لا أعرف حتى كيف أرسم » فقد كان لها رأيها الخاص في الفن ، أو قل رأى تأثر بالحفائر الرومانية في هر كولانيوم وكتب كايوس وفنكلمان . فولت ظهرها للباروك المزوق والروكوكو الزاهى ، وهما طرازان سادا في عهد اليزابث ، وفضلت عليهما الطراز الكلاسيكى الجديد الأكثر بساطة ونقاء . وقد عزا إليها بعض معاصريها فضل اصدار التعليمات الواضحة المحددة والرسوم التخطيطية التمهيدية لمعماريها (١١٤) .

فلما افتقدت الفنانين الوطنيين الذين يحققون لها أفكارها ، ولت وجهها شطر غربى أوروبا التماساً لرجال ورثوا التقاليد الكلاسيكية . وهكذا قدم جان باتست فلان دلاموت ، الذى شيد لها على نهر نيفا قصر أكاديمية الفنون (١٧٦٥ - ٧٢) وله واجهة بطراز النهضة من آجر مكسو ورواق معمد كلاسيكى ، وداخله سلم نصف مستدير فخم يفضى إلى قاعة مستديرة تعلوها قبة . وبنى فلان ملحقاً للقصر الشتوى هو الأرميتاج الشهير ، الذى كانت كاترين تراه ملاذاً تحتوى به من مراسم البلاط ، ولكنه أصبح قاعة تحفها ، وهو اليوم من أهم متاحف العالم . وقالت كاترين في وصفه لجريم عام ١٧٩٠ « أنه خلوتى الصغيرة ، فى موقع مناسب بحيث لا يكفى الذهب إليه أو الإياب منه إلى حجرتى أكثر من ثلاثة آلاف خطوة . . هناك أجول بين طائفة من الأشياء التى أحبها وأزهو بها ، وتلك الجولات الشتوية هى التى تحفظ على عافيتى » (١١٥) .

ومن فرنسا أيضاً قدم الاسكتلندى تشارلز كامرون ، الذى درس الزخرفة الكلاسيكية فى وطنه . وقد اشتهرت كاترين بالأشراق والرقعة اللذين كان يزين بهما - بالفضة واللاكيه والزجاج واليشب والعقيق والرخام المتعدد الألوان - الجناح الخاص الذى احتفظت به لنفسها ولعشاقها وكلاهما فى « القصر العظيم » بتسارسكو سيلو . كتبت تقول « لم أرقط ضريباً لهذه

الحجرات حديثة الزخرف ؛ ولم أمل قط طوال الأسابيع التسعة الأخيرة من تأملها « (١١٦) . وحول هذا القصر خططت لها حديقة بالطراز « الطبيعي » و « الانجليزي » ، وصفتها في خطاب إلى فولتير فقالت : « إنني الآن أهم حياً بالحدائق الانجليزية الطراز ، بخطوطها القصيرة ، والمنحنية ، ومنحدراتها المدرجة في رفق ، وبركها وبحيراتها . . . إنني شديدة النفور من الخطوط المستقيمة ؛ وباختصار أقول أن الهوس الانجليزي (الانجلومانيا) يسيطر على هوسى بالنبات » (١١٧) . وقد بنى كامرون لولدها بولس وزوجته الثانية الفاتنة في بافلوفسك (وهي ضاحية أخرى من ضواحي العاصمة) قصرأ بطراز الفيلا الإيطالية ؛ هنا حفظ الغراندوق وماريا فيودوروفنا التحف التي جمعها في رحلاتهما في غرب أوروبا .

ومن إيطاليا أقبل انطونيو رينالدي ، الذي بنى قصرين باذخين أهدتهما كاترين لجريجوري أورلوف ، قصر الرخام على نهر نيفا ، وقصر جاتشينا قرب تسارسكوسيلو ، الذي أصبح المسكن المفضل عند بولس الأول . ومن إيطاليا جاء جاكومو كوارنجي ، الذي استهوته المعابد اليونانية في بايستوم وروائع باللاديوفي قشتانتشا . وفي ١٧٨٠ عرض على كاترين عن طريق جريم تصميمات ونماذج لأبنية شتى كان يؤمل تشييدها . وافتتنت بها كاترين ومنذ ذلك التاريخ حتى ١٨١٥ شيد كوارنجي في سانت بطرسبرج أو على مقربة منها العدد الوفير من المباني بالطراز الكلاسيكي ، مسرح الأرميتاج ، ومعهد سمولني (الذي ألحقه بدير سمولني في راستريللي) ، ومصرف الإمبراطورية ، ومصلى الطريقة المالطية ، والقصر الانجليزي في بيتر هوف ، وقصر ألكسندر في تسارسكو سيلو . وقد صمم هذا القصر لحفيد كاترين الذي أصبح فيما بعد ألكسندر الأول ، والذي انتقل إليه في ١٧٩٣ ، بعد الفراغ من تشييده بعامين . « إنه من روائع معمار القرن الثامن عشر » (١١٨) . (*)

(*) كان القصر المفضل لدى القيصر نيقولا الثاني ؛ ومنه فر إلى سيبيريا والموت في ١٩١٧ . وقد حوله السوفييت متحفا . ولحقت به أضرار بالغة في الحرب العالمية الثانية . ولكنه رمم .

ولكن ألم يكن هناك معماريون روس ينفقون روبلات كاترين ؟ بلى .
فقد حداها الأمل في ترك أثر يخلد ذكرها في موسكو إلى أن تكلف فاسيلي
بازينيف بتصميم « كرمان » من الحجر ليحل محل كرمين إيفان الأكبر
المبنى بالآجر . وصمم بازينيف قصرأ هائلا لوقام لتضائل بالقياس إليه
قصر فرساي ؛ والذين رأوا نموذج الحشبي - الذي تكلف ستين ألف روبل -
تعجبوا من براعته . غير أن الأساسات التي أرسيت ليقوم عليها هبطت
بهبوط التربة بفعل نهر موسكو ، فنكصت كاترين عن المغامرة على أنها
دبرت المال الذي أتاح لإيفان ستاروف أن يبني على ضفة نيفا اليسرى قصر
تاوريدا ، وأهدت هذا القصر المنيف إلى بوتكين تخليداً لفتح القرم .

وأيا كانت تكلفة نفقات المباني التي شيدها كاترين فإنها حققت هدفها .
كتب ماسون المعاصر لها يقول : « إن الرجل الفرنسي بعد دورانه على
شواطئ بروسيا الماحلة وشقه سهول ليفونيا المقفرة التي لم تزرع ، تأخذه
الدهشة والطرب إذ يعثر مرة أخرى وسط بيضاء مترامية على مدينة كبيرة
فخمة ، تزخر بمجتمع راق وبأسباب الترويح والفنون وألوان الترف التي
خالها لا توجد إلا في باريس » (١٠٩) . أما الأمير دلين فبعد أن شهد أوربا
كلها تقريبا خلص إلى أنه « رغم ما في كاترين من عيوب ، فإن الصروح
التي شيدها ، العامة منها والخاصة ، تجعل سانت بطرسبرج أبداع مدينة
في العالم » (١١٠) ولا عجب ، فقد حول لحم عشرة ملايين من الفلاحين
ودمهم إلى طوب و حجر .

١٠ - خاتمة المطاف

لو أن كاترين سئلت لينت - كما هو دأب الحكام طوال العصور
والأزمان - أنه ما دام الموت حقا على البشر على أية حال ، فلم لا يسخر
الحكام عبقرية الرجال لتوجيه هؤلاء الأحياء المطاردين والبشر المقضى عليهم
لا محالة بالموت ، لجعل الدولة قوية ، وجعل مدنها عظيمة ؟ لقد عودتها
سنوات السلطان ، وتحديات الثورة والحرب ، وتقلبات النصر والهزيمة ،

أن تطيق آلام الغير دون أن تجفل ، وأن تغضى عن استغلال الأقوياء للضعفاء باعتبارها شراً لا قبل لها بعلاجه .

وقد أزهبتها الثورة الفرنسية بعد ما أزعجها العديد من المؤامرات لخلعها وأخافتها فتنة بوجاشيف . وقد اطاقها راضية حين توقعت ألا تكون أكثر من إطاحة بارسقراطية عاطلة وحكومة عاجزة ؛ ولكن حين أكره حشد من رعاع باريس لويس السادس عشر ومارى انطوانيت على ترك فرساي وسكنى التويلرى وسط جماهير أفلت زمامها - وحين أعلنت الجمعية التأسيسية أنها صاحبة السلطة العليا ، وحين ارتضى لويس أن يكون الأداة المنفذة لأوامرها لاغير - عندها ارتعدت كاترين فرقاً من التشجيع الذى أعطى بالمثل للذين سعوا إلى أن يفعلوا نظير هذا فى روسيا . فسمحت للأكليروس بأن يحظروا نشر أعمال فولتير التى كانت يوماً ما موضع حباها (١٧٨٩) (١١١) . ثم حرمت هى ذاتها بعد قليل جميع المطبوعات الفرنسية ؛ ونقلت تماثيل فولتير النصفية من قاعاتها إلى حجرة لسقط المتاع (١٧٩٢) (١١٢) ثم نفت المثالى راديشتشيف (١٧٩٠) ، وسجنت نوفيكوف المشرب بروح خدمة المجتمع (١٧٩٢) ، وفرضت رقابة تفتيشية على الأدب والمسرحيات . فلما قطع رأسا لويس السادس عشر ومارى انطوانيت بالجيلوتين (١٧٩٣) قطعت صلاتها مع الحكومة الفرنسية ، وحضت الملكيات الأوربية على تأليف تحالف ضد فرنسا . ولم تنضم هى ذاتها لذلك التحالف ، بل استعملته لتشغل به الدول الغربية ريثما تم ابتلاعها لبولنده . وقد قالت لأحد دبلوماسيها « إن كثيراً من مشروعاتى لم يستكمل بعد ، ويجب شغل بلاطى برلين وفيينا حتى يتركانا طلقاء بغير قيود » (١١٣) .

على أن آثاراً ضئيلة تخلفت من تحررها القديم وبقيت حتى ١٧٩٣ . فى ذلك العام أبلغها أحد الحاشية أن فردريك - سيزار دلاهارب ، الذى كان المعلم الخاص لحفيديها ، جمهورى عنيد . فأرسلت فى طلبه وأنبأته بالخبر ، فأجاب « ان جلالتك كنت على علم قبل أن تكلى إلى تعليم الغراندوقين انى سويسرى ، وإذن فجمهورى » ثم رجاها أن تمتحن تلميذيه ، وأن

تحكم على عمله من سلوكهما . ولكنها كانت تعلم كم أحسن تعليمهما ، فقالت له «سیدی ، لتكن يعقوبيا أو جمهوريا أو ماشئت ، إننى مؤمنة بأنك رجل أمين ، وهذا يكفينى . فابق مع حفيدي واحتفظ بكامل ثقتي ، وعلمهما بما عهدته فيك من غيرة» (١١٤) .

وفى وسط هذا الضجيج اتخذت آخر عشاقها (١٧٨٩) وهو بلاتون زوبوف . وكان فى الخامسة والعشرين ، وهى فى الحادية والستين . وكتبت لعشيقها «الشرفى» بولتمكين تقول : «عدت إلى الحياة كأننى ذبابة خدرها البرد» (١١٥) . واقترح «تلميذها» الجديد هجوماً مثلث الشعب على تركيا : جيش روسى بقيادة أخيه فاليران ذى الأربعة والعشرين ربيعاً يعبر القوقاز إلى فارس ويقطع كل تجارة الياپس بين تركيا والشرق ؛ وجيش ثان بقيادة سوفوروف يتغلغل فى البلقان ليحاصر الآستانة ؛ ثم أسطول البحر الأسود الروسى ، تحت إمرة الامبراطورة نفسها ليتسلط على البوسفور . وبعد سنوات من الإعداد بديء بتنفيذ هذه المغامرة الملحمية (١٧٩٦) واستولى الروس على دربنت وباكو ؛ وتطلعت كاترين إلى انتصارات تكمل برنامجها وتتوج حياتها .

وفى صباح ١٧ نوفمبر ١٧٩٦ بدت مرحلة كالعادة . وبعد الفطور اعتكفت فى حجرتها . ومضى وقت ولم تظهر ثانية ، فقرعت خادمتها الباب ، فلما لم تجب دخلت ، فرجدت الامبراطورة منبطحة على الأرض ، صريعة انفجار شريان فى الدماغ ، وفصدت مرتين ، وأفادت لحظة ، ولكنها فقدت النطق . وفى العاشرة من مساء ذلك اليوم لفظت أنفاسها .

وأحس أعداؤها أنها لا تستحق ميتة رحيمة كهذه . ولم يغفروا لها قط تلك التناقضات بين مزاعمها التحررية وحكمها الاستبدادى ، وضيقها بالمعارضة ، وإخفاقها فى تنفيذ الإصلاح المقترح للقانون الروسى ، واستسلامها للنبلاء فى توسيعها للقنية . ولم تحمد لها انتصاراتها تلك الأسر التى أفقرتها الضرائب الباهظة ، أو التى تكلمت أبناءها بسبب حروبها . ولكن الشعب فى جملته صفق لها لأنها مدت روسيا إلى حدود أرحب وأكثر أمناً . لقد

أضافت ٢٠٠,٠٠٠ ميل مربع لمساحة روسيا ، وفتحت ثغوراً جديدة لتجارة روسيا ، وزادت السكان من تسعة عشر إلى ستة وثلاثين مليوناً . وكانت عدمية الضمير في دبلوماسيتها - ربما أكثر قليلاً من معظم حكام ذلك العهد في ابتلاعها بولنده .

أما أعظم منجزاتها فهو مواصلة جهود بطرس الأكبر لإدخال روسيا في نطاق الحضارة الغربية . وبينما كان بطرس يفكر في هذا الهدف بلغة التكنولوجيا ، كانت كاترين تفكر فيه أولاً بلغة الثقافة ، فاستطاعت بقوة شخصيتها وشجاعته أن تنزع الطبقات المتعلمة في روسيا من العصور الوسطى وتدفعها إلى فلك الفكر الحديث في الأدب والفلسفة والعلوم والفنون . وكانت بين أندادها من الحكام المسيحيين (باستثناء فردريك الثاني غير المسيحي) سبابة إلى توطيد التسامح الديني . وقد عقد مؤرخ فرنسي مقارنة فضلها فيها على الملك الأعظم (لويس ١٤) قال « إن سماحة كاترين ، وبهاء حكمها ، وفخامة بلاطها ومنشأتها ، وآثارها ، وحروبها - هذا كله كان بالنسبة لروسيا بالضبط ما كانه عصر لويس الرابع عشر بالنسبة لأوروبا . غير أن كاترين إذا نظرنا إليها كفرد وجدناها أعظم من هذا الملك . ذلك أن الفرنسيين هم الذين بنوا مجد لويس ، أما كاترين فهي التي بنت مجد الروس . ولم يتح لها كما أتبع له ميزة حكم شعب مهذب ، ولا أحيطت منذ طفولتها بشخصيات عظيمة مثقفة » (١١٦) .

وفي تقدير مؤرخ انجليزي أن كاترين « هي الحاكمة الوحيدة التي فاقت إليزابيث ملكة انجلترا كفاءة ، وهي تعدلها من حيث الأهمية الباقية لأعمالها » (١١٧) . وقال مؤرخ ألماني « كان كل ما فيها « كائناً سياسياً » ، لا ضريب لها من جنس النساء في التاريخ الحديث ، ولكنها في الوقت ذاته امرأة خالصة ، وسيدة عظيمة » (١١٨) ، ويجوز لنا أن نطبق عليها المبدأ السامح الذي وضعه جوته : كانت عيوبها عدوى انتقلت إليها من جيلها ، أما فضائلها فكانت من صنعها هي . »